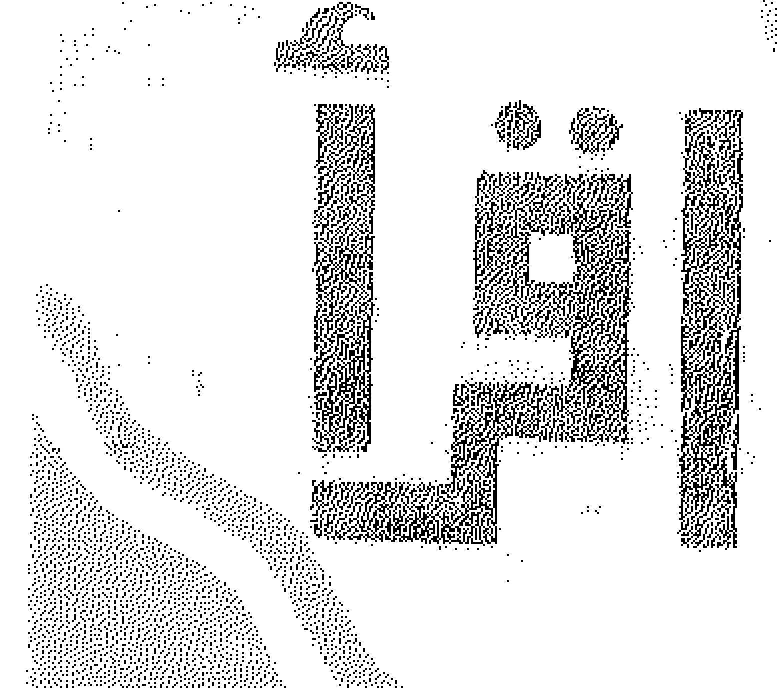
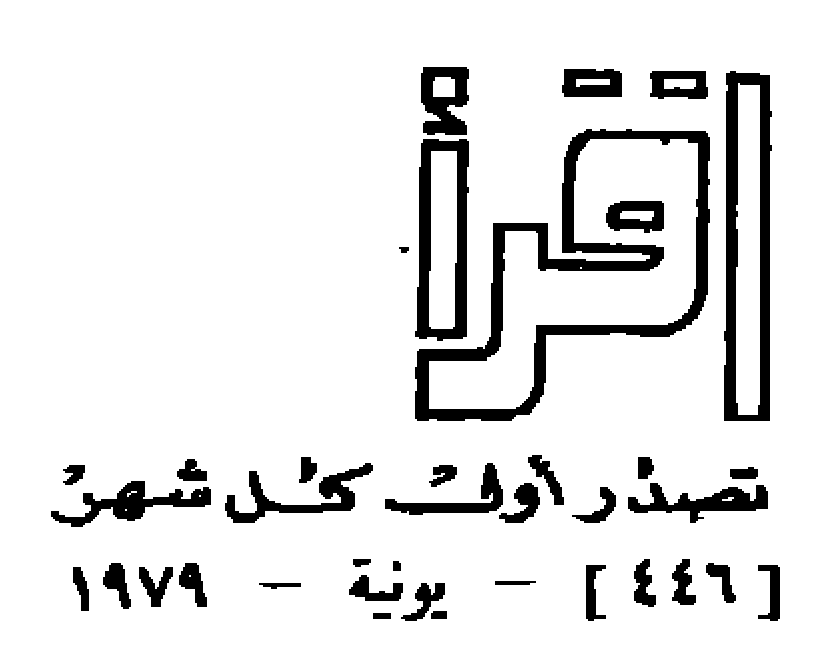
نهاد شريف

# الماسات الزيتونية






تصدر أول كل شهر
[٤٤٦] - يونية - ١٩٧٩



نهـاد شـريف

# الماسات الزيتونية

مجموعة من القصص العلمى



دار المعارف

تصميم الغلاف : جودة خليفة

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

# فهرس

# المقدمة

كيف يكون اللقاء المرتقب بين كائنين من كوكبين متباعدين ، وعنصرين مختلفين . . بين كائن بشرى أرضى وكائن من كوكب آخر قصى . . سواء تم اللقاء على سطح كوكبنا ، أو جرى على ترى واحد من آلاف ؛ وربما ملايين . الكواكب المتجمعة أو المتناثرة من حولنا ؟ !

هل يتصارع الكائنان ؟ . هل يتقاتلان ؟ . . هل يفنى أحدهما الآخر ؟ أو أن صلة خفية تجمع بينهما بالرغم من نأى كل منهما عن نظيره ، فيكفان عن الأذى أو الدفاع عن النفس ، ثم يتقاربان ، فيتصافحان فى النهاية ؟ !

وسؤال ثان ، ثاقب للرأس . . فبالرغم من عظم السطوة والجبروت ، هل ينجح العلم دواما فى حل ما يعترضه من عقبات ، أم يعلن عجزه فى أكثر من موقف قباله أسرار الكون وخفايا الوجود ومعمياته ؟ . أسرار الجسد الإنسانى على سبيل المثال . . فى حياته ، وبعد مماته . . من أين جاء ، وإلى أين يذهب أو تذهب روحه . . وكيف يكون التلاقى أو التراسل أو التفاهم بين الأحياء والأموات ؟ ! .

وأسئلة مثيرة وبالغة الحيوية تعترض العلم كذلك دون مواراة . . تصدمه لكنها لا تعظه . . ترى ما مدى بشاعة الصورة ، وما مقدار هولها ، حين تقوم حرب نووية عالمية ثالثة ؟ ! . وكيف هى الحياة البشرية فى أعقابها ؟ .

وما مبلغ قسوة الحياة فى ظل قدوم عصر جليدى ، أو ماذا تكون حدود تغير طبيعة الحياة أيام ذاك . . بل أساسا ، أهو قادم بالفعل ؟ .

ثم إذا كنا نحن قد عجزنا للآن بالرغم من تقدم العلم – عن اكتشاف حياة زاقية ، مماثلة أو مختلفة ، فى أنحاء الكون ، فهل هذا هو حال غيرنا فى أية كواكب أخرى أو أنهم يراقبوننا منذ أزمنة بعيدة ، ويحصون علينا حماقاتنا ومظاهر عقوقنا لحكمة وجودنا ؟ .

عديد من الأفكار والرؤى الغامضة يطرحها العلماء خلال أبحاثهم الطويلة المضنية ، دون أن يجدوا لها تفسيرا منطقيا قاطعا . . وهنا تبرز مهمة الكاتب . وهى برغم مشاقها واتساع – بل اختلاط عناصرها – مهمة معقدة . بالغة التشعب والتفرع ، تغذيها نوعية من الخيال غير المألوف . . يعتصر صاحبه ، ويرهقه ، ويستلّ الراحة والاستقرار من فكره ومشاعره . . فإن استثارة الخيال عند لفيف من الناس مرض ، عذاب لا يقوون على الفكاك من أسره إلا بالتعبير عنه ومجاراته . . .

فإلى من صحبتنى خلال محنتى الكبرى . مع عذابات عقلى وقهره اللاإرادى ، حين يلح عليه ويلهبه خيال متسلط جامح . . إلى من تحملت – دون أدنى تذمر – شطط الغريب من الرؤى ، المبهم والشاذ واللامعقول أو اللامقبول من التصورات والأحلام ، فكانت عبر محنتى الأمان والضمان . .

إلى رفيقة رحلة قلمى . . رحلة عمرى . .

إلى زوجتى . . أهدى كتابى . .

نهاد

# الناقوس الصدئ !

راحت الأضواء السحرية ؛ المتوارية بداخل الجدران ، تخفت شيئا فشيئاً ، لتتحول ألوانها إلى الأزرق الباهت ، بطول القاعة المتسعة والواطئة السقف . . وقد ران صمت مثير ، ملؤه الترقب المشوب بالسكينة والرضاء . .

« مرحبا بكم فى أول لقاءاتكم معنا » !

وزاد تسلل الكلمات الحانية عبر عشرات الميكروفونات فى حجم حبات الأرز ، إلى عشرات العقول المتحفزة فى كامل وعيها . . « إنها جولتكم المبدئية أيها السادة ، لنشاهد معاً آخر إنجازات العلم فى رحاب الفضاء » .

وتباطأت الكلمات قليلا لتشحن بالثقة . . « ولتأخذ أهبتنا بلا أدنى انزعاج . . لنبدأ الانطلاق إلى واحد من أقرب جيراننا فى المجموعة الشمسية » . .

بدون صوت ، ولا حركة ظاهرة ، راح السقف الواطئ يذوب مختفيا ، لتبرز

بدلا منه قبة السماء وقد بدت حالكة الظلام ، بالرغم من لمعان مصابيحها المتناثرة لا نهائيا . . على أن القاعة سرعان ما تحولت بالأجساد المائتين التى تضمهم ، مستلقين فى شبه اغفاءة – إلى قذيفة ضخمة ، اندفعت تخترق أستار الفضاء . فى إصرار غريب . . صوب جرم غامض ملبد بالغيوم السوداء . .

« أيها السادة . . ولما كنا نتحرك عبر الفضاء بسرعة تبلغ ثمانية ملايين ميل فى الدقيقة ، وتقارب سرعة الضوء البالغة أحد عشر مليونا من الأميال فى الدقيقة . . فإننا قد قطعنا توا المسافة بين كوكب الأرض وكوكب الزهرة ، وقدرها ٢٦ مليون ميل ، خلال الدقائق الأربع والنصف السالف مرورها » .

من خلال طيات الغيوم الكثيفة والثقيلة القوام ، أخذ المنظر يتداعى ، وجرم الكوكب ينمو قربا وبروزا ، حتى أوشكت معالم سطحه الشديد الوعورة ، على الإتضاح . . وبغتة ، تكشفت الغيوم عن بساط قاتم الاخضرار ، يمتد بعمق الأفق كثيفا موحشا . . ومع ازدياد الاقتراب من السطح القاسى المتشابك الأشجار – وقد قلّت حدّة الاندفاع الساحق ، فقاربت الهبوط الوئيد – بدأ يتضح ما يشبه واديا قليل الغور . . يجثم على أحد جانبيه جسم لامع يكوّن بعض الملامح الهندسية . .

« إننا نهبط الآن ، أيها السادة ، على ثرى الزهرة . . إننا نتوجه رأساً إلى المحطة رقم ١٣ ، التى قام بتشييدها على ضفة وادى الرخام ، رواد من بلدان مختلفة ، تحت علم الأمم المتحدة » . .

ظهر الوادى مستطيلا يشق الأرض الصخرية المكسوة بنوع غير معروف من الأشجار العملاقة . . وزاد وضوح أبنية المحطة . فإذا هى ذات قباب مستديرة . تشغل رقعة لا تقل مساحتها عن ميلين مربعين . . فى حين غلّفت الجو – فوق الأشجار والوادى والمحطة رقم ١٣ – غلالة رقيقة تتباين ألوانها بين الرمادى

والبنفسجي ثم القرمزى ، كاشفة عن مكوِّناتها من غازات ثانى أكسيد الكربون . .

« إن المحطة الفضائية التى نوشك على بلوغها ، مقامة فى هذه البقعة القصية من قطب كوكب الزهرة الجنوبى . . فالحرارة هنا تتراوح بين ٢٥ و ٤٥ درجة مئوية . . وإن قطبى الزهرة أكثر ملاءمة للإنسان الوافد - بدرجات حرارتها - عن غيرهما من المناطق الأخرى بأنحاء الكوكب ، وخاصة لدى خط استوائه ، حيث تصل الحرارة إلى ٣٥٠ درجة مئوية أو يزيد » . .

استمرت الكلمات تترى - عبر حبات الأرز إلى الآذان - تصف كل كبيرة وصغيرة من أسرار الكوكب ، الذى لم يكن يعرف عنه ، حتى بداية القرن العشرين ، إلا وصف مرآه اللامع لدى أول ظهوره فى حافة السماء غربا . كلما حلَّ الليل الأرضى . . .

* * *

ومرت ساعة زمنية حافلة . .

وأضيئت الأنوار . . فإذا كل رحلتنا السابقة مجرد عرض سينمائى مجسّد لآخر انطلاقات البشر إلى جار الأرض الأسطورى . . كوكب الزهرة . . ومع سطوع الضوء المتسرب من خلال الجدران - قويا هذه المرة - اتضحت معالم القاعة عن ذى قبل ، فإذا هى أكثر ضخامة واتساعا مما يُظَنّ . . تمتد فى الاستطالة نحو خمسة عشر مترا ، وفى العرض عشرة أمتار . . بينما حوت مائتى مقعد ، صنعت من لَدِين بالغ النعومة ، تماثل المقاعد الوثيرة بالطائرات النفاثة ، تراصت متجاورة فى نظام بديع وأناقة كاملة . . وقد شغلت كلها بصبية من الجنسين ، دون العاشرة من أعمارهم ، استلقوا عليها فيما يقارب النعاس الظاهرى ، وإن نبضت الخلايا العقلية فى رأس كل منهم بالطاقة القصوى من التركيز والانتباه . .

وفى مواجهة المقاعد ، كانت هناك بأقصى اليسار منضدة انسيابية من « الفورمايكا » . ذات ساق واحدة مثمنة ، تكتظ بعشرات « اللمبات » والمؤشرات والمفاتيح والمحولات المتباينة الأحجام . . وقبالة المنضدة جلس رجل عادى الملامح ، تستغرقه الشبكة الإلكترونية المعقدة . والتى عن طريقها يباشر التحكم فى كافة ما يدور بالقاعة . .

كذلك بدت بقعة واطئة فى أرضية القاعة . على يمين الجالس إلى المنضدة ، امتدت بطول ستة أمتار وعرض متر . حتى قاربت أقصى اليمين . . هذه البقعة الواطئة كانت تسفر . بين الحين والحين . عن فجوة تصعد من أعماقها نماذج الدرس وأدوات التجارب المختلفة والخرائط المضيئة والعدد المتطورة . التى تتفق مع ما يتسلل من كلمات إلى آذان الصبية المستقلين فى تمام يقظتهم الذهنية . . وأما جدار القاعة الممتد أمام وجوه شاغليها ، فقد بدا بلوريا محدبا ، وكأنه عدسة «فنار» توقفت عن الدوران حول محورها . ويمثل أحدث تطور فى « شاشات » العرض السينمائى المجسم . .

وكان لون جدار القاعة وسقفها ولون المقاعد والمنضدة . وحتى الأرضية وما يكسوها من أبسطة طولية صنعت من الفلين الصناعى الماص للصوت . . كانت جميعها بيضاء . يشوب بياضها زرقة خفيفة هادئة . .

شىء واحد بسيط ، لم تكن تلحظه العين غالبا . . ذلك الناقوس الصغير : المتروك عن عمد فوق واحد من أرفف ثلاثة ، شغلت جميعها بأصص زجاجية بها نباتات مهجنة سبق زراعتها فى تربة القمر . . وكبقية النواقيس المعروفة كانت مادته النحاس وإن غلب على لونه المصفر اخضرار الصدأ وقتامته . . كذلك ظهرت على الجانب الأيسر ، فيما يقابل الرف وعليه الناقوس ، مجموعة من « اللمبات »

الكمثرية المتماثلة . بلغ عددها ثلاثين « لمبة » مختلفة الألوان . .

وراحت لمبة بنفسجية تضيء وتنطفئ . فى حركة متتابعة موقوتة . . وعلى قمتها اتضح الرقم ١٨ . .

وفى سكون انفرجت البقعة الواطئة . بأرضية القاعة ، عن رجل أخذ جسده يصعد حثيثا . . حتى استقرت قدماه فى النهاية إلى حوار الآخر الجالس إلى المنضدة ! . .

بدا الرجل متوسط القامة . نحيفا ، أسمر البشرة ، ويزين الشعر الأشيب معظم رأسه وسوالفه . . وفى أغوار عينيه كانت تلمع ومضات ذكاء وجرأة نفّاذة وتسلُّط . . وكانت ملابسه غاية فى البساطة والأناقة معا . . وبنظرة سريعة خبيرة تفحص الرجل شاغلى القاعة ، ثم مدّ يده والتقط ميكروفونا فى حجم نصف القلم الرصاص ، وسار وهو ممسك به بضع خطوات مبتعدا عن المنضدة . . وحين توقف وواجه الصبية ، كان قد رسم على شفتيه ابتسامة ودود . . وقال :

– أهلا بكم . . أهلا بقدومكم إلى « نادى المفكر الصغير » . . إننى « صبرى عبد الرحيم » أتحدث إليكم بوصفى المشرف الفنى على النادى . . وهذه باكورة محاضراتى إليكم ، أفتتحها بكلمة موجزة عن أهم إنجازات العلم فى المجال السلمى ، خلال السنوات العشرين الماضية . . تلك التى انقضت منذ مولد أول ناد للعلوم بعاصمتنا . . . ولعلكم تذكرون قصة الأندية العلمية بمصر ، ومراحل تطورها وانتشارها حتى وصل عددها فى عامنا الحالى ١٩٩٠ إلى قرابة الألف نادٍ ، يعتبر نادينا من أكبرها وأكثرها تفوقا فى حداثة معداته . .

زمّ الرجل شفتيه ، ورفع رأسه المكلل بالبياض ، فى حركة متكبرة متحدية يملؤها الاعتداد بالنفس . .

– أيها الزملاء الصغار .. إن بروز فكرة النوادى العلمية ـ وانتشارها فى أرجاء العالم ـ كان فى حد ذاته من أبرز سمات السبعينات ، ثم الثمانينات الماضية فالنوادى بهذه الصورة ، هى بلا ريب الملجأ الأمين لحماس الصغار واهتماماتهم المتزايدة بالعلم وتطبيقاته .. على أنها بالطبع لم تكن الميزة الوحيدة لطابع تلك السنوات المشحونة المثيرة ـ التى نتحدث عنها ، وإنما كانت هناك إنجازات علمية متعددة ـ تحققت فى مجالات شتى .. إنجازات بالغة العظم والسمو ـ دفعت بالبشرية دفعات مهولة نحو التفوّق التكنولوجى ـ المجهولة حدوده .. والمجهولة آثاره وأبعاده .. !

انساب صوت الرجل جهوريا ، برغم خفوته ـ إلى آذان الصبية ـ يوجز لهم ما تحقق على أيدى العلماء فوق ظهر كوكب الأرض ـ إبان الأعوام من ١٩٧٠ إلى ١٩٩٠ .. فكلمهم عن بدء السيطرة على مشكلة النمو السكانى الرهيب ـ على الرغم من بلوغ تعداد البشر ٦ مليارات نسمة ، وذلك عن طريق ماتوصل إليه العلم من مصادر الغذاء المستحدثة ، باستخدام البروتينات الصناعية ودقيق الفطر والبكتريا ، والزراعات البحرية وأهمها الطحالب ، كطعام .. فضلا عن تطبيق قانون تحديد النسل الإجبارى عالميا ..

ثم أفاض فى حديثه طويلا عن الطاقات المجربة مؤخرا ، إلى جانب الطاقة الذرية .. ومنها طاقة الشمس – بتغطية سطح القمر بالخلايا الضوئية من أشباه الموصلات – وطاقة « الليزر » وطاقة الذبذبات الصوتية عالية التردد .. وكيف أمدتنا الطاقات الجديدة بقوى ديناميكية جبارة ـ أمكن بوساطتها التوغل بعيدا فى رحاب الفضاء ـ وبذلك تم ارتياد الكواكب : عطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمشترى ـ وما يدور حولها من أقمار .. واستخدام ما بها من طاقات .. وأمكن التنبؤ بصحة الطقس تفصيليا بنسبة ٩٩٪ ، كما تيسرت زراعة الصحارى القاحلة ،

والمناطق القطبية القصية ، وزراعة قاع البحر وسفوح الجبال البركانية . . وتمت إدارة الآلات المتطورة المعقدة . .

وفى مجال الإلكترونات ، حدثهم الرجل عن العقول الإلكترونية المفكرة ، ونظام التصور الذهنى فيزيقيا . .

وعن تطبيق الأوتوماتيكية فى الصناعة والزراعة ونظم الاتصالات ، وعن انتشار الإنسان الآلى . . كذلك شرح لهم طريقة سير القطارات السريعة عبر الأنابيب الممتدة بباطن الأرض بين القارات ، وتحت الأنهار والممرات المائية ، بواسطة اندفاعها بضغط الهواء الجوى . .

على أن اهتمام الرجل بدا واضحا ، حينما تناول انجازات الطب الحديث ، وأولها إمكانية زراعة كافة أعضاء الجسد الإنسانى بعد التغلب نهائيا على مشكلة طردها . . وما أعقب ذلك من انتشار بنوك قطع الغيار البشرية ، والاكتفاء بدفن الموتى المشوَّهة جثثهم فحسب . . ثم ما تم التوصل إليه من عقاقير تغيِّر الشخصية ، وأخرى تصحح الأخطاء الوراثية ، وثالثة تتحكم فى الذكاء الإنسانى . . ثم أيضا النجاح الكبير فى القضاء على غالبية الأمراض المستعصية ، كالسرطان والأنفلونزا ، بعد عزل الفيروسات المسببة لها ، وأمراض الدورة الدموية بعد كشف أدق خباياها . . وإن عجز الطب للآن ، إزاء مرض العصر – التوتر والقلق – وعدد من الأمراض الشاذة التى سببتها ميكروبات وافدة من الكواكب المجاورة . . وكانت نهاية الحديث همسات الرجل المليئة بالفخر عن التعليم . . أوضح المجالات التى حقق العلم خلالها أقوى انتصاراته ، فقد تم اختصار مراحل الدراسة إلى ثمانى سنوات فحسب ، تمتد من السادسة إلى الرابعة عشرة من عمر الدارس ، بعد إمكانية بث المعلومات المركزة خلال النوم . . وبذا تضاءلت الأمية

إلى ٠.٥ ٪ فى العالم كله . . وفى نفس الوقت ، اتخذت الخطوات الفعلية والحاسمة ، فى سبيل نشر لغة عالمية تتكلمها شعوب الدنيا قاطبة . .

على أن الختام الكلاسيكى للمحاضرة ، كان ما ذكره الرجل عن مناداة بعض العلماء مؤخرا بتحقق الاتصال مع أرواح الموتى ، الأمر الذى أوجد نوعا من الراحة الذهنية حيال فكرة الموت ، فلم يعد الموت لدى غالبية الناس ذلك الكابوس الذى يتوقعه الكل نهاية محتومة للوجود . . وإنما هو مجرد انتقالة من حياة جسدية ملموسة ، إلى أخرى أثيرية قد تتميز بتحررها من قيود الجسد وأعباء المعيشة الدنيوية المضنية .

– والآن . .هل لدى أى منكم سؤال يسأله !

تسابقت من حوله الاستفسارات . تأتى متكاسلة من أفواه الصبية . تحملها الأسلاك إلى عقله ، فيجيب عنها إجابات حاسمة . .

وسألته بغتة صبية متوردة البشرة ، فى لون التفاح الناضج :

– الناقوس . . فيم استخدامه ؟

دهش الرجل من سؤالها فرفع حاجبه متحيرا : « أى ناقوس ؟ »

– هذا الصدئ . . الموضوع على الرف . .

ابتسم الرجل : آه ، ناقوس فتحى ! . . إن له قصة . .

تسابقت الزفرات : « نريد أن نعرفها . . »

حركت الذكرى أشجانه . فأطلق آهه عميقة انتزعها من أعماق صدره . وعقد ذراعيه خلف ظهره ، تطويه عاطفة مشبوبة . .

– إنه مهدى من صديق . كانت تربطنى به صلات ود وتفاهم . .قلما كنت أراه لكثرة مشاغلى . ولكن على قصر اللقاء ونأيه . كنت أشجع فيه إيمانه الراسخ

بما للعلم والدراسات العلمية من آثار جذرية على حياتنا . .

وصمت الرجل قليلا . . وأغلق عينيه تماما يستجمع أياما عزيزة عليه . .

– ثم . . لقد كان أديبا كذلك . . فكتب القصة العلمية القصيرة . والرواية العلمية الطويلة . وكان عمله الأدبى العلمى يستغرقه بوقدة من الإخلاص المتناهى . . يبحث عن المعلومات وينهث فى بحثه عنها . ويفتش عن الأحداث ليغرق فى دوّامتها . . .

وبدا على وجه الرجل ضيق مباغت يعذبه . ثم انفرجت شفتاه عن كلمات مرّة : « لكن صحته لم تكن تساعده . . كان يعانى من مرض مزمن بكليتيه . . وهكذا رأيته يهل علىّ كعادته دون انتظار ، فى أمسية يوم من أواخر عام ١٩٧٥ . وقد احتضن صندوقا ورقيا وكراسة للمحاضرات . . وبرغم الضحكات التى ملأ بها وجهه المحمرّ العريض ، وبرغم صوته العالى المرح . وحركات بدنه وذراعيه المتلاحقة التى لا تكل ، فقد أحسست بذعر يخنقه . . ! » .

تحشرج صوته ، وزادت قبضته على الميكروفون الدقيق ، تكاد أصابعه تسحق معدنه اللامع . . لكنه تابع حديثه .

– وفى كلمات مقتضبة ، علمت أن الأطباء أخبروه بأن أيامه معدودات . . لذا فقد قصدنى فى زيارة قد تكون أخيرة . . وهو لم يأت لوداعى ، وإنما – حسب قوله – جاء يعدّ للقاء بيننا من نوع مغاير ، مبتكر . . لقائى مع روحه . . وفى بساطة شديدة واقتناع لا يقبل الجدل ، وضع الصندوق الورقى بين يدى ، وهو يؤكد أن ما بداخله سوف يكون وسيلة اللقاء المرتقب بينه وبينى . . ولا زلت حتى هذه اللحظة ألمح نظرات فتحى الهادئة الواثقة ، وهو يخرج الناقوس من صندوقه ، ليقدمه إلى ، وكلماته البطيئة ترن فى أذنى . «سوف ألقاك ، فلابد من اتصال يتم

بيننا بطريقة ما . فقد تعودت عليك . . فقد انتظر مجيئى بجوار الناقوس أينما وضعته . فى ساعة تخلو فيها إليه . وأما الشفرة الخاصة بنقرات الناقوس . . نقراتى . ووسيلة التخاطب بيننا ، فسوف تجد حل رموزها بين دفتى الكراسة . وإنى أرى فى اتفاقنا أمرا مبتكرا وجديدا كل الجدة . فكافة اللقاءات المعروفة بين الأحياء والأموات . إنما تتم باستدعاء الروح عن طريق الوسيط . ولم نسمع أبدا أن روحا معينة قد أتت طواعية حسب موعد محدد . كما سأفعل أنا » . . وحين أنهى كلامه ألقى بالكراسة إلى جوار الناقوس . ثم شدّ على يدى طويلا . . وتركنى وانصرف . . !

بلع الرجل ريقه . وهو يضيف فى حرارة : « وكدت يومها أسخر من سلوكه الغريب . . فأولاً . كان عهدى به دواما الجدية فى التفكير والرصانة فى التصرفات . . وثانيا ، فإنى أعتبر نفسى من المتشككين البعيدين عن تفهم النظريات الروحانية . فأنا رجل علم ولا وقت لدى لغيره . . ثم أيضا ، كان محياه يومذاك نضرا يفيض صحة وحيوية . . على أننى أصبت بالوجوم والحيرة ، حين سمعت بوفاته عقب ذلك بأربعة أيام . . »

تساءل أحد الصبية فى لهفة : « وهل تم . . لقاؤك مع روحه فيما بعد ؟ »

— لم يحدث . .

تمتم أكثر من صبى وصبية : « ألم يدق الناقوس أبدا ؟ »

قال الرجل : لقد وضعت الناقوس فى البداية على حافة مكتبى قرابة الشهرين ، ثم ولا أدرى المناسبة ، وجدتنى أنقله بعدئذ إلى مكانه الحالى على هذا الرف . . وطبعا لم أسمع رنين الناقوس . . بل ما كنت أتوقع سماعه قط . . !

– علام احتفاظك به إذن ؟

– لعلها الذكرى . .

أعقب قول الرجل مناقشة قصيرة حول الناقوس وصاحبه . سرعان ما توقفت بانتهاء الوقت المحدد للمحاضرة نفسها . . ولما كانت محاضرة المشرف الفنى على نادى « المفكر الصغير » هى ختام فقرات البرنامج لذلك اليوم . فقد تململ الحضور من الصبية من الجنسين ، وتثاءب كل منهم بضع مرات قبل أن يبادروا بالوقوف ونزع حبات الأرز عن آذانهم . . وفى النهاية ، استدار الواحد منهم وراء الآخر ، يأخذ طريق الانصراف فى تتابع ورتابة ، وقد انضم فى أعقابهم رجل المنضدة . . ومن خلال الباب العريض الذى انفرج عنه الجدار الأيسر لدى منتصفه . راح الجميع يتوارون . .

إلا أن صبية شقراء ، ناهدة الصدر . فى تكوين رياضى يتناسق مع خطوط جسدها الانسيابية الناعمة ، تلكأت . . اقتربت من الرجل ، وحدقت فى وجهه بعينين تسودهما زرقة البحر ، وهمست :

– أرى يا أستاذ أن تعلق الناقوس من أعلاه . بحيث يصبح مطلق السراح . .

وحين خلت القاعة من الجميع ، وخيم الصمت المطبق على أرجائها الخاوية . ظلت كلمات الصبية الشقراء تملأ سمعه فى إلحاح عجيب . . أجل . قد تكون فكرتها صائبة . . قد تكون نوعا من الإلهام غاب عنه قبلا . وإن تصوره – على الأرجح – هراء . . وحسما للأمر . فليجرب . . !

توجه الرجل إلى حيث كان الناقوس . . تناوله من مكانه فوق الرف . وربط أعلاه بطرف منديله ، وربط الطرف المقابل للمنديل بحافة الرف . . وأصبح الناقوس معلقا فى الهواء . . حرا طليقا . سهل الحركة . .

بيطء – فى المبدأ – تأرجح الناقوس الهوينى ، يمنة ويسارا ، فى شىء من الثقل والتردد . على أن حركته تزايدت . . اكتسبت قوة أكثر . وعجلة ، وإصرار على التمايل بعنف . . وبغتة . انطلقت دقات الناقوس تتاسبق مجلجلة . مدوية بين جنبات القاعة . .

وخيل إليه أنها نغمات مألوفة . . فارتجف قلبه . . اعتصره الحنين والشوق !

وبذل الرجل جهدا مضنيا ليتشل نفسه من وهدة الذهول الذى حط عليه . . ويسارع بإحضار كراسة المحاضرات ، وقلم . وورقة بيضاء . .

# جولة المساء

حوّم الطبق الطائر برهة يسيرة ، ثم راح يهبط وئيدا ، وسط زئير العاصفة الثلجية ، وقرصه الخارجي يدور فى لفات حانية متلألئة ، دونما صوت . .

خلال دقيقة كان قد دنا برفق من الصفحة البيضاء الملساء ، ليحط عليها بالقوائم الأربع التى برزت من أسفله . . ومن أسفله أيضا . انفتحت كوّة وامتد سلم . . وعلى السلم هبط رجل ، ثم رجل ثان . . ومن خلفهما هبطت امرأة . .

كان الثلاثة فارعين ، لا يقل طول الواحد منهم عن المترين . . وكانوا يتدثرون بملابس صوفية ثقيلة مع قلنسوات ومعاطف وأحذية بطّنت بفراء ألياف الزجاج . معطف المرأة وقلنسوتها فى لون الخوخ ، ومعطفا الرجلين وقلنسوتاهما يغلب عليهما اللون الأخضر الزيتى . . أما الأحذية فكانت سنجابية . .

واستقلت الثلاث الهبات عنيفة من الثلج المتساقط . . وكادت المرأة أن

تنكفئ ، لولا الذراع القوية التى مدها أحد الرجلين . .

لم يكن هناك أثر فى السماء لقرص الشمس . ولم يكن ثمة أثر لطير فوق هامات الأشجار المعرّاة . وقد ناءت بحملها البارد الثقيل . . بضع أطباق تحلق فى تتابع شرقا ، وصاروخ ذو ست مراحل يعبر الأفق جنوبا . . ولا شىء فيما عدا ذلك سوى الضباب يختلط بالظلام ، بين الأرض والسماء . . ووسط الضباب كمنت أشباح الأبنية المختفية قممها . . ناطحات سحاب . ومسلات . وأقواس نصر . وأبراج كهرباء . . وفى جوف القوام نصف الشفاف ، توارت جوامع تلاشت مآذنها ، وكنائس تآكلت أبراج أجراسها . .

إلى أحشاء العتمة المختلطة ضبابا على ظلام . اندفع الرجلان وفى أعقابهما المرأة . . حين وصلوا البناية الواطئة دلفوا إلى داخلها ، وهبطوا سلما كهربائيا متحركا . . وعند محطة قذيفة الأنبوب الصاروخية ، تصافحوا وافترقوا على موعد للقاء فى صباح الغد . . فاستقل أحد الرجلين . والمرأة معه . القذيفة المتجهة فى الأنبوب يمينا . . واستقل الرجل الآخر القذيفة الذاهبة فى الأنبوب فى الاتجاه العكسى يسارا . .

« انشفطت » القذيفة التى يستقلها الرجل والمرأة ، أو انطلقت بدفع صواريخها العكسية ، داخل الأنبوب ، وقد استلقى صاحبانا ، كل على كرسيه الوثير ، إح فى شبه إغفاءة . .

– ميدان التحرير . .

أفاق الرجل ، فأيقظ المرأة . . وفى عجلة هبطا ليستقلا سلما كهربائيا صاعدا ، يخرجان منه إلى العراء ، حيث الضباب والظلمة من جديد . . ربما أقل كثافة . . وقابلتهما هذه المرة جدران سمراء ، تحمل لوحة مستديرة من لدين مضىء . .

« مبنى التليفزيون . . . »

كان الرجل ممسكا بيد المرأة . . وقبل أن تستوعب عيناه بقية كلمات اللوحة ، وإن استوعبها عقله عشرات المرات قبلا ، كان قد مرق معها خلال الباب البلورى الضخم ، ليلقيا بجسديهما على واحد من المقاعد المزدوجة ، المتحركة على سير جلدى مشدود . .

قادهما المقعد عبر ممر طويل ، مكيف بأشعة الشمس الصناعية . . وما لبثا أن قفزا من المقعد إلى قلب « الأستديو » ، الذى ترتفع الحرارة بداخله ٣٠ درجة عما هى عليه بالخارج . . خلعا معطفيهما . . علقاهما . .

تحت تقويم إلكترونى يحمل الأرقام « ٥ – ١ – ٣٩٧٢ » ، جلس الرجل والمرأة متقابلين . . كل منهما احتواه مقعد آخر ذو مسندين وحاجز لين خلف القفا ، صنعت كلها من وسائد الهواء المضغوط . . الساعة الفسفورية تشير للخامسة مساء . .

اللحن المميز يبدأ بافتتاحية صاخبة . .

« سيداتى سادتى . . عبد الرءوف صبرى ، يتحدث إليكم من تليفزيون جمهورية مصر العربية ، من القاهرة . . سيداتى سادتى . . أهلا بكم ومرحبا . فى برنامج : جولة المساء » . .

موسيقى مرحة . .

« نبدأ جولتنا هذه الليلة مع الدكتورة عنايات محمد ، خبيرة الأرصاد الجوية الشهيرة . . »

موسيقى مرحة . .

« البرنامج يحييك يا دكتورة ، ويسألك عن آخر أبحاثك وتنبؤاتك » .

وفى صوت ناعس رخيم ، يتنافى مع مظهرها الجاد : قالت : « إننى مازلت عند رأيى الذى أعلنته منذ أسبوع ، بأن البشرية تجتاز الآن الأعوام الأواخر للعصر الجليدى الخامس . . أجل ، نحن على أعتاب فترة دافئة طويلة ، تلوح بشائرها فى الأفق . . ولعل أبرز ما يؤيد كلامى ، ما شاهدناه اليوم من طبقنا الطائر ، ونحن نحلق به فى سماء العاصمة غربا . . ثلاث هامات ضاوية شامخة رأيناها بوضوح ، وقد ذاب الجليد من على قممها . . إنها أهرام الجيزة الثلاثة التى تتحدى الأزل . .

« أما أجزاء أوربا ، وأمريكا الشمالية ، وشمال ووسط آسيا ، التى تكسوها طبقات الجليد وركامه فقد جاءتنا وكالات الأنباء مؤخرا بالكثير من الدلائل على قرب انحسار الجليد عنها . . إذ شوهدت بعض نباتات المناطق المدارية تتكاثر على ثراها . . كما . . » .

واستمر صوت المذيع وصوت الدكتورة ينسكبان عبر موجات البث التليفزيونى ، إلى ملايين أجهزة الاستقبال ، بملايين الدور والأبنية . . فى حين شدت أعصاب المشاهدين وأرهفت ، تدغدغها خيالات وردية تتصاعد من حولها أبخرة لافحة . . خيالات تدور حول انحسار الجليد رويدا رويدا ، وعودة الدفء والشمس الساطعة . . بعد عدد أصبح يسيرا من الأعوام . . رقم واحد وعلى يمينه ثلاثة أصفار . . !

# الماسات الزيتونية

– ادخل . . إنه محلك . . تفضل !

ظل التردد يشمله . . ثم قال : « خشيت أن . . أوقظك . . »

وقف العجوز يلوح للقادم . وقد عمه نشاط مفاجئ كان يفتقده منذ لحظات :

– لا أبدا . . إنها حرارة الجو . دفعتنى للإغفاء دقائق يسيرة . .

ولما لاحظ العجوز أن الرجل لم يغيّر من وقفته لدى الباب . ترك مقعده وهرول يجذب قامته الفارعة . برفق . . فانقاد له حتى أجلسه على واحد من كراسى الخيزران التى بدون مسند . .

واستطرد العجوز . وهو يعود لمجلسه خلف المنضدة : « من منا لا يتأثر بمثل حرارة اليوم ؟ . لقد فاقت ٤٠ درجة . وربما قالت الأرصاد غدا ٤٢ درجة . . »

لكن الغريب ذا الأربعين ربيعا .. وقد أحنى منكبيه العريضين . وشبك أصابعة على حجره ، ظل على صمته وجموده . .

- . . فماذا يفعل عجوز مثلى ، حين تطبق عليه كل هذه الحرارة ؟ .

ولم ينبس الرجل الفارع بحرف كذلك . .

- آه ، والآن طلباتك ياسيد . . ما الذى ترغب فى شرائه . . أسورة ذهبية بالفصوص ، أو أيقونة تتدلى من سلسلة ، أو قرط دقيق منمق ؟ . أم تراك تهدف إلى اختيار مايناسبك أنت شخصياً . . لدى طلبك تماماً . . خاتم ذهبي ذو نقش نادر . .

قاطعة الرجل فى نبرة حاسمة : «لا أريد شراء شىء» .

رمقه العجوز بنظرة فاحصة : إذن فالسيد . . أتى بغية إصلاح حلية ما . . ؟

- ولا هذا . . !

تدلى فك العجوز ، واتسعت حدقتاه وقد أغرقته حيرة تمتزج بنفاد الصبر .

- فهل لدى السيد قطعة من ذهب يعرض بيعها . . إسورة . . أو خاتم على سبيل المثال ؟

بدا أن العجوز أصاب الهدف هذه المرة . فقد عاد القلق يغزو نظرات الرجل الشاردة . . كان جامدا صلبا لا يطرف له جفن . إلا أن احمرار مقلتيه ومحجرهما . والاختلاجة التى اعترت ركن فمه . بل الطريقة المنفعلة التى شبك بها أصابع يديه حتى هربت منها الدماء . . دلت هذه كلها على أنه يرزح تحت جبل من التردد . يجاهد للفكاك من قيده فى استماتة . .

- ليس لدى ذهب . . !

قالها الغريب الفارع بجفاء . وفى تجهم . وقد صمم على المضى قدما مهما كانت النتائج مدّ يداً رفيعة الأصابع إلى جيب سترته الداخلى ، وأخرجها وقد قبضت على

كيس جلدى منتفخ . . وبعصبية فتح الكيس . وقربه من سطح المنضدة المغطى بورقة عريضة بيضاء . . ثم قلب فوهة الكيس إلى أسفل . فتدحرجت منه أربع حصوات براقات . . .

زمجر : « لدى . . هذه . . ! »

حوّل العجوز بصره . . رأى الحصوات تستقر قبالته . على السطح الورق الأبيض ، وقد لمعت سطوحها المثمّنة من خلال ما يشبه الزجاج المصنفر . وأومضت ببريق أخضر زيتونى . بالغ حد الجمال والروعة . .

كانت ثلاث منها فى حجم حبات الزيتون المتوسطة . أما الرابعة فكانت كبيضة الحمام إذا طُليَت بلون الزيتون القاتم الأخاذ .

فتح العجوز درجا بالمنضدة ، أستل منه عدسة مكبرة . . التقط الحصاة الكبرى ، وراح يتفحصها بعين ليست حادة البصر بقدر ما هى فاحصة ذات خبرة فى التمييز والموازنة . واكتشاف أدق الحسنات أو أتفه العيوب فى عالم الصياغة الحافل بالأسرار . .

بعد برهة . أنزل العجوز عيناه بالعدسة المكبرة . فى حين ظلت أصابع يسراه قابضة على الحصاة الزيتونية . تقلبها فى إعجاب . وفمه يتمتم :

– هه . . عظيم ! . . تقليد متقن للماس . . لم أرَ طيلة حياتى مثله دقة . . !

– هو ماس خام . . حقيقى . . !

عاد العجوز يتفحص الحصاة وقد رفع حاجبيه دهشة . ثم تركها وتناول واحدة غيرها . . وغمغمت شفتاه ، فى حين كانت عيناه تعتصران رصيدا الخبرات الضخم :

– لكن هذه العروق المستعرضة فيما حول النويات . . هى غريبة حقا . بل نفس النويات تبدو من قوام مغاير ؛ ومع ذلك تقول إنها حقيقية . . فكيف تكونت ؟ . ثم هذا اللون الزيتونى ، لم أره من قبل . . بالطبع رائع . ومذهل . . لكنه شاذ . . !

همس الرجل الفارع مستعيدا بعضا من ثقته بنفسه : « هى حامات صادقة . ما فى ذلك أدنى شك . . وأنا أعرض بيعها » .

سأله العجوز فى خبث : « رغبتك واضحة يا سيد . . فمن أين حصلت عليها ؟ »

قال الرجل فى صرامة بدت شرسة . ضارية . تتنافى مع مظهره المتخاذل لدى أول قدومه : « إن شرطى لبيع الماسات . ألا يصحبه أية أسئلة ! » .

حاول العجوز أن يعترض : « لكن . . »

قاطعة الغريب فى حسم : « أرجو اعتبار كلامى نهائيا . . فقط ثق بأنها ليست مسروقة . »

قطب العجوز جبينه . . بدا أنه يفكر عميقا . وأصابعه المرهفة تتلمس سطوح الحصوات فى تعلق ونهم . ثم دلى شفته السفلى . وكور لسانه . وقال بغتة : « لامفر من ذكر اسمك على الأقل »

– وما الداعى . . ونحن لن نوقع أوراقا رسمية ؟

– لا أفهم !

– الأمر غاية فى البساطة . . إذا أعجبتك الحصوات . أنت تدفع . وأنا أعطى . . وهذا كل شىء . .

لم يتفوه العجوز بحرف . . مال بكرسيه إلى الوراء . حتى لامس ظهره

الحائط ، وقبع يتدبر أمره فى سكينة . . مرت دقائق وهو لا يحيد ببصره عن الحصوات الأربع المستكينات على الصفحة البيضاء . . هل حقا هى حقيقية . من خام طبيعى ، وليست مصنّعة . مقلّدة . . يلوح هذا . ولم لا ؟ . . لكن النواة . . التعريقات ، اللون ، الشكل العام غير المألوف . . تم حاسته . هل تخدعه إلى هذه الدرجة ؟

وانكب العجوز يتفحص الحصوات من جديد . . راح يقلبها كل بدورها . تحت العدسة المكبرة ، فتفصح عن لمعان سطوحها ، بالرغم من عدم صقلها . . وجرب أيضا اختبارات عملية : جرب طرقها . وخدش سطوحها . وتسخينها على موقد لحام قوى النيران . . وجرب شق إحداها بمنشار كهربى ذى أسنان من تراب الماس . لكن الحصاة ظلت على صلابتها . تستعصى على مجرد إحداث شرخ يسير . . هى بالتأكيد خام طبيعى . . هى أصيلة وليست مزورة . ! .

اتضح نفاد الصبر فى نظرات الرجل الفارع ، وقال وهو يطرق بلاط الأرضية بكعب حذائه طرقات قصيرة منغمة :

– والآن . . فما الذى انتويته ؟

رفع العجوز عينين متعبتين : « ربما لا أستطيع المغامرة . . »

قابل الرجل النظرات المرسلة إليه بأخرى متحدية : « وقد تستطيع . . »

فى استكانة هذه المرة ، أمسك العجوز بالحصاة الكبرى . ووضعها على إحدى كفتى الميزان الحساس ، وأخذ يوازنها بعدد من الصنج والرقائق النحاسية . .

صاح فى إعجاب لم يقوَ على كبحه : « ٥٢ قيراطا ! ! »

وجمع الحصوات الثلاث الباقيات ووزنها : « ٨٣ قيراطا . . فيكون مجموع الأربع معا ١٣٥ قيراطا »

ـ ٣ سبع قيمتها ؟

وحدث العجوز نفسه : « بالطبع تبلغ الكثير . . إنها تساوى ما لا يقل عن ست آلاف من الجنيهات . . لا قد تصل إلى سبعة أو ثمانية آلاف . . فإذا أضيف إلى الحسبان لونها الغريب ، فقد يتعدى الرقم عشرة آلاف جنيه . . »

تنحنح العجوز ، وقال فى لهجة غامضة : إن قيمتها كبيرة . . قد تزيد . . عن ألفين . . وربما ثلاثة آلاف جنيه . . .

تمتم الرجل فى صوت أجوف ، خلفيته وجه بلا تعابير : « ثلاثة آلاف جنيه ؟ »

على أن العجوز أضاف بسرعة : « إلا أننى لا أملك حاليا بخزانتى سوى ألف واحد » .

– ألف . . فقط ؟

وخاف العجوز أن تفلت منه الصفقة ، فعاد يقول ملحًا : « قد أتمكن . . من جمع خمسمائة أخرى من زملائى بالجوار ! »

تغيير مفاجئ اجتاح قسمات الرجل الفارع . . انقلبت سحنته ، ضاقت عيناه ، وبرزت أسنانه . . ولم يلحظ العجوز شيئا من ذلك . . كان مشغولا باحتضان الحصوات بأرق نظرات حانية ، يبعثها قلبه عبر حدقتيه . .

بلع الغريب ريقه وقال : « لا . . لا داعى ، يكفينى ألف واحد هذه المرة . . »

– أو ستكون هناك مرة تالية ؟

– ربما مرات . . !

– تبيعنى فيها حصوات كهذه ؟

– آمل ذلك . .

قال العجوز ويده تجذب باب الخزانة الثقيل ، فتظهر شبه خالية من الداخل إلا من صندوق خشبي تعلوه حزمة أوراق مالية منسّقة . .

– أحسنت إذ أخبرتنى حتى أعد لك مبلغا مناسبا . . لكن متى يكون قدومك التالى ؟

– لا علم لى . . قد يتيسر بعد ثلاثين يوما !

أراح العجوز حزمة الأوراق المالية على حافة المنضدة ، وشبك ذراعيه . وابتسم . .

– تفضل المبلغ !

لم يحص الرجل الفارع القامة حزمة الأوراق الخضراء ، وإنما تناولها فى هدوء . . وأودعها جيب سترته ، حيث كانت تستقر حصوات الماس منذ دقائق . . ودون أن يلفظ حرفا ، أو حتى يومئ للعجوز محييا ، استدار . . وغادر الحانوت على عجل . .

* * *

قرابة آخر الشهر التالى ، وقد مر نحو أربعين يوما أو تزيد بيوم وربما يومين . . ظهرت قامة الغريب الفارعة ، ذات الكتفين العريضتين والصدر البارز العضلات كصدور الرياضيين . . انطلق صاحبها يوسع الخطى بساقيه الطويلتين عبر « زقاق الزعفرانى » ، تسبقه أصداء ضربات قدميه فى رنين مكتوم ، وتلاحقه نظرات متسائلة – من حوانيت عدة – يداعبها أمل التوقف لدى كل منها دون غيرها . .

لكن الرجل ظل على هرولته حتى عبر ثلثى الزقاق . . وولج فى النهاية الحانوت الذى يحمل لافتة ، كتب عليها بخط كبير مائل : « الحاج على الجوهرى » . .

غير أن الرجل الفارع القامة لم يمكث طويلا بحانوت تاجر المجوهرات ، فبمجرد

أن دخل واستقبله العجوز بالترحاب – وكانت برفقته زوجه ، وهى امرأة طيبة مسنة وإن كانت تصغره بعقد أو نحوه حتى بادر بإعطائه خمس حصوات زيتونيات دفعة واحدة . . ولم يستمر فحص الحصوات أكثر من دقائق عشر . . وهكذا سرعان ما غادر الرجل حانوت « الحاج على الجوهرى » وجيبه يضم ألفين من الجنيهات . بدلا من الألف السابق . . .

* * *

وامتدت العلاقة بين الرجلين ، وتوثقت عن ذى قبل . . لكنها ظلت علاقة حذرة بين مجهولين : العجوز الحاج الذى يجهل كل شىء عن صاحبه حتى اسمه . والسيد الغامض الذى لا يبغى معرفة أى شىء عن صاحبه فيما عدا اسمه . .

وكان الرابط الوحيد بين المجهولين المتفاهمين مجاميعَ من حصوات خام الماس – بديعة اللون ، خفية المصدر ، تراوحت أعدادها فى كل مرة بين حصاتين وست حصوات – ومقابلا نقديا للحصوات الثمينات ، يتفاوت بين نصف ألف إلى ثلاثة آلاف ، أعدت وجهزت كمقابل استغلالى بخس لسلعة عصية يصعب تسويقها فى مكان آخر . .

وبامتداد عامين كاملين ، تقابل المجهولان تسع عشرة مرة . . فتبدلت حال تاجر المجوهرات العجوز واختلفت كلية عما كانت عليه سابقا ، إذ سرعان ما اشتهر بمورده الجديد من الماسات الزيتونية العجيبة ، التى مهر دون سواه فى قطعها وتشكيلها . . وما تبع ذلك من ثراء ونعمة ، وانتقالة شامخة إلى حانوت أوسع ، بشارع الصاغة الرئيسى ، تتخمه قطع الحلى الفاخرة ، وكميات الذهب والأحجار الكريمة التى تقدر بأسعار خيالية . .

أما الرجل جالب الحصوات ، فلم يعلم بأمره أحد ، حتى العجوز النشط بالرغم

مما يحمل على كاهله من أيام مضنيات . . فقد جهل وزوجه أية معلومات عن عميله بصورة قاطعة . . صحيح أنه خلال محادثاتهما المقتضبة المبتورة . كثيرا ما حاول استخلاص أو تلمس أو استشفاف أتفه الكلمات . . كما تعمّد مرة أن يتعقب الرجل الفارع ، بعد مغادرته الحانوت ، ثم أثناء سيره فى الزقاق ، وبعده بشارع الأزهر إلى أن وصل إلى ميدان العتبة . . وأكثر من مرة ، تقابل وإياه لدى قدومه من أول الزقاق ، وبعدئذ بأول شارع الصاغة ، حين نقل حانوته إلى الأخير . لكنها بقيت جميعها محاولات ساذجة ، عجزت تماما عن أن تكشف النقاب عن الشخصية الخفية . . التى يغرقها الغموض ويلفها الإبهام .

* * *

كانت الحجرة المتسعة ترفل فى حلة من السكون . والجو البارد المعتم . المشحون بالمشاعر المتأججة . . وعلى الفراش الوحيد بها استقر جسد قِلّة . دثرته البطاطين الثقيلة . فلم يتبق ظاهرا منه للعيان سوى وجه شاحب – كان فاقد الوعى . بعد أن أجريت له توا جراحة عاجلة . .

وبخارج النافذتين المتجاورتين ، على يمين الفراش . كانت السماء تمطر رذاذا متفرقا . . فى حين تنبئ الغيوم المتراكمة بمزيد من المطر . ومزيد من العتمة . .

وعاد « الحاج على الجوهرى » يتلمس قسمات الوجه المليحة . ببصر ضاعفت من حدته – مؤخرا – عدستان يحيطها إطار أنيق . . وبينما جلست إلى جواره زوجه قبعت فى المواجهة – بجانب الفراش الأيسر -- أم المريضه وأختها ، وقد نطقت أساريرهما بأبلغ آيات الانفعال والألم . .

لم يكن الثراء المفاجئ الذى يرفل فيه الحاج العجوز – ومصدره المأساة . منحة القدر دون جهد يذكر – هو سبب مجيئه ومعه ما حمل من هدايا ، ولا كان

خوفه من ألسنة أفراد عائلته – التى لا ترحم لدى أقل تقصير – هو الذى حرّكه عند سماعه خبر إجراء جراحة الزائدة لها . . لا ، ليس شيئا من ذلك بالمرة . . إنما كان حبا حقيقيا يكنه لهذه الصغيرة : ابنة أخته . وقد نمت وكبرت ، ثم تزوجت بمعرفته وعلى يديه . . لقد حرم هو الأبناء فعوضه الله خيرا فى هذه الابنة «منال» ، وإن تكن ابنة لأخته وليس له . . .

وأفاقت المريضة الشابة ، فتنهدت القلوب ، واسترخت المشاعر من حولها . . وابتسم هو ابتسامة الطمأنينة . . وانتظر إلى أن تمالكت مشاعرها ، ليقترب ويضع تحت وسادتها مظروفا يضم مبلغا كبيرا من المال . .

وحينما انطلق وزوجه يأخذان طريق العودة ، عبر الممر الطويل بمستشفى طنطا الخيرى ، كانت السعادة والرضاء يعمانه ، فقد استطاع دون ريب أن يقدم خدمتين جليلتين فى رأيه . . إحداهما للفتاة المقربة الى قلبه ، والثانية لنفسه هو تعويضا لعاطفة الأبوة التى يفتقدها . .

وبينما كان العجوز ، وقد امتلأ جسده وترهل عن ذى قبل ، يتقدم حثيثا تلاحقه امرأته البدينة وأمارات الطيبة تنير وجهها . . إذا بها تتشبث بذراعه بغتة ، بكيفية كادت تدفعه إلى التعثر والسقوط . .

– انظر يا على . . !

هتف وهو يعيد توازنه : « ماذا تفعلين ؟ . . كدت أقع . . ما الذى تريدينه ؟ »

– انظر هناك . . خلف تلك المحفة . .

دفع العجوز ببصره بعيداً . كانت هناك محفة ( نقالة ) ذات عجل ، يقودها ممرضان إلى يمين الممر . . وأمكنه تميز وجهى الرجلين ، لكنه عجز عن تفسير

ملامح الجسم المستلقى أمامها . .

– لا يمكننى تبين المريض . . من هو؟

قالت السيدة ، وهى تضغط بكتفها ، مقربة خدها من خد زوجها : «لا أقصد المريض . . بل انظر من يسيران وراء الممرضين» .

ونقل العجوز بصره لمسافة أكثر بعدا ، وأمكنه أن يرى الرجلين المنهمكين فى حديث بدا مسترسلا متشابكا . . وهمّ العجوز أن يستوضح زوجه عما يثيرها فى هيئتهما ، حينما استطاع الإلمام بقسمات وملامح أحدهما . . عندئذ كف عن المسير ، وقد عمه انفعال شديد .

– آه . . هذا الذى على اليسار !

همست كأنها تخاف أن يسمعها أحد : «أجل . . أليس هو . . ؟»

قاطعها منفعلا ، وقد خفت بدوره من صوته : «لا جدال إنه هو ، بعينه . . إذن فهو طبيب ؟ . . ويبدو أنه جراح كذلك . . »

أوقف العجوز ممرضة عابرة ، وسألها : «أليس الذى على اليسار هو الطبيب فتحى أبو . . ؟» .

قاطعته وهى مستمرة فى سيرها : «من . ؟ . هذا ؟ . . إنه جراح المسالك البولية عبد اللطيف شوقى» .

وطوال ساعات العودة ، والسيارة الأجرة تطوى الطريق الأسفلتى ، تحت وابل كثيف من المطر ، راح العجوز وزوجه يتساءلان فى حيرة ودهشة بالغة ، عما يدفع طبيباً . جراحا ، إلى الاتجار فى الماس . . تلك البضاعة التى تنأى كلية عن مجال الطب والأطباء . . إلا . . لو كان الماس مهربا . . لكن من أين . ؟

* * *

- لقد جئتك مبكرا ، لأننى أزمع الرحيل مبكرا . .

قالها الرجل الفارع القامة ، وهو يلوح بالكيس ويلقيه قبالة العجوز على المنضدة . . ثم يودع طرف الأريكة جسده ، ويطوى معطفه ويضعه فوق ركبتيه . . لكن العجوز - وقد ربض وقورا غامضا على غير عادته - لم يفتح الكيس . وإنما شبك ذراعيه ، وافتعل ابتسامة عريضة على شفتيه اليابستين . وقال :

- قد يكون السيد متسرعا فى اتخاذ قراره . .

انتشرت الحيرة على جبهة الرجل الفارع وتساءل : « أى قرار تعنى ؟ »

- موضوع رحيلك المبكر . .

ازداد قلقه : « ولم لا . . ؟ »

اعتدل العجوز ، وقال ببطء فى وداعة ظاهرة يحركها حشد من الدهاء والمكر : « لأن بيتنا اليوم حديث حافل . . طال انتظاره يا دكتور عبد اللطيف . . » .

تجهم وجه الرجل . . اصفر ، ثم اخضر ، ثم ظل باهتا بين اللونين . لكنه لم يفتح فمه ، بل اعتراه الوجوم ، والتبلد . . حط عليه ستار من السكينة ، يخفى تحته بركاناً من المشاعر الجياشة المتضاربة . .

بعد أن طال صمته ، تمتم فى النهاية ، فخرج صوته فحيحا أجش ، غير مألوف : « أعرفت . . اسمى ؟ » .

- بالكامل . . الدكتور عبد اللطيف شوقى . .

نكس الرجل رأسه ، وأغلق عينيه ، فى حين استطرد العجوز .

- وعرفت مهنتك ووظيفتك . . فأنت جراح المسالك البولية الأول ، بمستشفى طنطا الخيرى . .

– كل ذلك ؟ . . كيف !

– بمحض المصادفة ، وحدها . . كنت وزوجتي في زيارة مريضة قريبة . بمستشفى طنطا . وهناك لمحناك . . وعرفنا كل شيء عنك .

أرجح الطبيب ذراعه المدلاة على جانب مسند الأريكة . . أرجحها في ملل . . أخيرا قال في لهجة مستسلمة . وأسنانه تجز على طرف شفته السفلى .

– لقد كشفت جزءا من سرى . . وأظن لا مفر من إطلاعك على بقيته . .

انفرج فم العجوز عن جملة مقتضبة ، أودعها الكثير من المعانى . . . « لو سمحت . . » !

غيّب الطبيب يده في جيب سترته ، وأخرج منديلا بسطه وراح يجفف عرقا غير واضح القطرات . وقال :

– الموضوع متشعب ، عويص ، قد يطول شرحه وسرد جوانبه . . لكنى قدر الإمكان . . سوف أوجزه وأقربه إلى فهمك . .

وأغلق الطبيب عينيه ، يتيح لأفكاره قدرة أكبر على التداعى والتجمع ، ومن ثم التركيز . . كان بحق يسترجع ماضيا يهرب منه ويخشاه :

– لا أدرى على وجه الدقة متى بدأ اهتمامى بتلك الحصوات ، المسننات ، البالغات أقصى درجات الصلابة ، وأقصى درجات الخطورة على الإنسان . . وقصدى هنا ينصب على حصوات الكلى المريضة . . بالطبع يرجع هذا إلى زمن بعيد ، يسبق التحاقى بكلية الطب ، فقد كان أبى رحمه الله مصابا بمرض تكوينها ، وبعده أحبيب خال لى . . بل أنا نفسى قاسيت آلام لفظ إحداها في صباى . .

وصمت الطبيب برهة . عاود بعدها نسج كلماته العجلى اللاهثة . يستمدها من أغوار روحه : « قلت إننى أقصد الحصوات التى تتكون فى كلى الإنسان . . وأعنى فى حديثى نوعا منها بالذات هو حصى « الأكسيلات » . التى يكونها ذلك الراسب الملحى المتبلور . والتى تمتاز بالأطراف الحادة القاطعة فى ضراوة . . وكنت كلما أمسكت بواحدة من هذه الحصوات الملعونة . أحاول دقها أو سحق جزء – ولو يسير – منها بالقادوم . . فإذا ما تعبت من الدق . وباءت محاولاتى بالفشل . رحت أسأل نفسى : أى فارق بين حصوات الأكسيلات وحصوات الماس . . وخلال دراستى الجامعية . وجدت الجواب عن سؤالى . . حصوات الماس أكثر صلابة . وأكثر بريقا وبهاء . . ثم إن ظروف تكوينها تختلف وتتباعد عن ظروف تكون حصوات الأكسيلات . . لكنى أبداً لم أكن أحصل على الاقتناع الكافى . بوجود الفارق الضخم بين النوعين من أنواع الحصى . . »

أدنى الطبيب أصابعه من حافة المنضدة . وأخذ ينقر عليها فى عصبية . ثم رفع أصبعه . ونفخ أوداجه . وألقى بنفسه مذعنا فى خضم الكلمات المرة المضنية .

– وذات يوم . وكنت قد أجريت لتوى جراحة أخرجت فيها حصوة أكسيلات كبيرة . . وبينما أخذت أقلب الحصاة الزيتونية . مستعذباً مرأى لونها الجذاب وسطوحها ذات النتوءات . حتى كدت أنسى عذابات تكونها وإخراجها من البدن المريض المسكين . . بغتة أومضت فى رأسى تلك الفكرة المجنونة . . «ألا يمكن إنبات حصوة ماس حقيقية بكلية شخص مريض ؟» .

اتضح الإنزعاج على وجه العجوز . فألقى سؤاله مبتورا . ناشزا . تعتريه الرجفة :

– يا ستار . . أية جريمة نكراء دبرت ؟

على أن الطبيب لم يهتم لاعتراض العجوز ، إنما أطلق العنان لمشاعر طال كبتها تنساق مع كلماته . . وما كان لعائق مهما كان ، أن يجرؤ الآن على اعتراضها وسلبها حقها فى الانبثاق والتوالد :

– رحت أقرأ العديد من الكتب عن الماس . . عن نظريات تكونه وتشكل أنواعه . . وسألت الكثيرين من خبراء إنتاجه ، وخرجت بحصيلة مدهشة . . الماس ما هو إلا كربون نقى متبلور ولكى تتكون بلوراته ، لابد من ضغط الكربون بشدة ، وتسخين سائله المتدفق إلى درجة حرارة عالية . . ثم يحتاج تكوّنه أيضا لصدمات من البرودة المفاجئة . . وبالنسبة لخطوتى الجريئة – التى لم يسبقنى إليها أحد – كنت أحتاج إلى مطلب إضافى كذلك . . كلْيَة مريضة تذعن لعمليات الترسيب ، حيث يتاح إبراز الحصاة إلى الوجود . .

دمدم العجوز ساخرا : « ترى مَن هو سعيد الحظ الذى تلقى تجربتك الأولى عليه ؟ »

– اقتصرت تجاربى المبدئية على الحيوانات . . أجريتها على الفئران . . عقاقير تولد درجات حرارة عالية موضعية ، وأخرى تحدث ما يشبه الضغط العالى ، وثالثة توفر تدفق السائل وجريانه بصورة منتظمة . . ثم صدمات فجائية من عناصر غازية بالغة البرودة . . وبعد جهود شاقة مضنية ، حصلت فى كُلَى الفئران على الثمرة الفريدة . . نماذج من خام الماس ، فى حجم رءوس الدبابيس ، وأكبرها كانت فى حجم حبة الأرز . .

توقف الطبيب عن الكلام ، وأخذ يدلك عنقه ، كأنه يختنق . . جاهد فى استماتة ، لكن التيار الشرس جذبه ، طواه ، هضمه فى أعماقه . .

– وما كنت لأجرؤ ، مهما أوتيت من شجاعة ، على نقل تجاربى للإنسان . .

حتى ألمت بى تلك الفاجعة على غير انتظار . . مرض شقيق المزمن ـ الذى استنفد كافة مدخراتى ومصادر قوتى . .

– ألديك أسرة كبيرة ؟

– لدى زوجة وابنتان وأمى وذلك الأخ الذى يصغرنى بثمانية أعوام . .

عوى العجوز وهو يلتقط أنفاسه بصعوبه : « موضوعنا . . لنعد إلى موضوعنا . . فكيف أمكنك تحويل حصوات الـ . . ماذا أسميتها ؟ »

– الأكسيلات . . إحدى مشتقات الحير . .

– أجل ، كيف حولت الأكسيلات إلى ماس . . بداخل الكلية البشرية !

قال الطبيب فى جدية : « أنا لا أحول شيئا إلى شىء آخر . ليس الأمر بهذه الكيفية . . وإنما أنا أبحث بين الكلى المريضة عن تلك التى ترسب ملح الأكسيلات . . فإذا ما وجدت كلية فى بداية تكوينها للحصاة ، بحيث لا يزيد حجم الحصاة عن مجرد رملة بحجم مليمتر مكعب أو مليمترين ، التقطت الخيط وبدأت العمل الفورى . . »

– كيف بالله . . ؟

– أبدأ فى إعطاء المريض الأدوية التى أحضّرها بمفردى فى معملى . . مستغلا رملة الأكسيلات كنواة ، يتراكم عليها خام الماس بحوض الكلية . .

– آه . . يا للغرابة ! . . وبعدئذ ؟

أجاب الطبيب ، وقد تغلبت عليه نزعة البحث العلمى : « خلال شهر تقريبا ـ يتم تكوّن الحصاة الماسية المناسبة . . وأمكث أتتبع مراحل نموها بالأشعة والتحاليل المختلفة . . وحين تصل حداً أعرفه ، أنزلها بمساعدة موسّعات الحالب

ومدرات البول المعروفة . . أو عن الطريق الجراحى . . دون أن . . أتقاضى أجراً . . » .

أومضت عينا العجوز ، وبرزتا ، واحمرتا . . أخيرا قد أمسك المهنة التى ظل يترقبها بنفاد صبر ، منذ أن بدأ الطبيب يتكلم . .

– هذه الجراحة . . فى أعقاب تلك الوسائل المفتعلة المقصودة . . المخادعة . . إذا لم يكن تصرفك عمل إجرامى بحت . . فماذا تسميه ؟

حاول الطبيب المراوغة : « أنا لا أجرى تجاربى إلا على ذوى البنية القوية من الشباب وحدهم ، ولا أقرب الشخص الواحد مرتين ، بأى حال من الأحوال . . ثم إن حصاة الماس ملساء أسهل فى الانزلاق فى مجرى البول من حصاة الأكسيلات . . »

غير أن مقاومة الطبيب اعتراها التصدع ، إذ ترقرقت دمعتان فى مقلتيه ، تعبران عما يجتاحه من ألم وحزن دفين . .

– لكن فيم المكابرة . . فيم تلمس الأعذار ؟ . . هكذا كان انسياقى إلى الهوة ، إلى أعمق أعماقها ، إلى قاعها المليء بالطين والوحل . . وأنت يا ساج تعرف بقية التفاصيل التى نتجت عن قصة تلك الحصوات . . تلك الزيتونات المبرقات . . .

أطلق العجوز آهة طويلة ، مشحونة . . قال فى وهن ، وقد فتر حماسه ، واعتراه شعور ممضّ بالتقزز .

– هذا ما خمّنته منذ البداية . . لم تكن الماسات طبيعية ، لم أر مثلها . . مثل لونها الزيتونى ، قبلا فى حياتى . . والآن ، وقد اتضح ماخفىَ علىّ طيلة مايزيد عن عامين ، فقد بات من المحتم أن آتخذ موقفا مغايرا . . سيدى الطبيب ، من الجحود أن أنكر فضل حصواتك – أو ماساتك الخام – علىّ . . هى بالفعل سبب ما أنعم

به من ثراء حالى . . لكن فى الوقت نفسه ، من المحال أن أقبل الاستمرار فى اللعبة الكريهة !

– ما الذى تقصده ؟

– بمنتهى الوضوح ، ستكون هذه الصفقة الأخيرة بيننا . . فإننى لن أتسلم منك أية ماسات بعد اليوم . . .

أحنى الطبيب قامته الفارعة وهو يتصبب عرقا ، وقال ، «وأنا . . إنى . . أذعن لرغبتك» .

قالها الطبيب وقد وقف يجفف عنقه بمنديله ، وهو يهم بمغادرة الحانوت . . لكن العجوز ترك كرسيه متعجلا ، ولحق بالطبيب يتشبث بذراعه الضخم . .

– أرجوك . . لا تغضب منى . . الأمر يتضمن مصلحتك كذلك . . ثم إنك – كما يبدو لى – رجل عاقل ، تتغلب الحكمة والطيبة على بقية نوازعه . . ولذا فلن أتركك قبل أن أحصل على وعد منك بعدم تكرار استغلال مرضاك . . .

وعبر ساعة تالية تبودلت فيها كلمات عتاب تأرجحت بين العنف والهدوء ، أمكن للعجوز أن يفوز بالقسم الذى أراد سماعه . . .

* * *

ومرت ثلاثة سنوات متخمات ، ازداد أثناءها الحاج على الجوهرى ثراء ونفوذا ، وبلغ صيته فيها أوجه ، حتى نقب بأبى تجار الماس فى مصر بأسرها ، وأغنى أغنياء خان الخليلى الموغل فى القدم ، وأصبح واحدا من أبرز الأعيان والمرموقين فى الناحية . . وكانت حادثة الحصوات العجيبة قد أوشكت أن تنمحى من ذاكرته ، حين خيل إليه فى أعقاب السنين الطويلة ، أنه قد لمح وجه الطبيب – فى الآونة الأخيرة – أكثر من مرة . . فى أكثر من مكان ، وأكثر من مناسبة . . .

وذات أمسية . . على وجه التحديد أمسية التاسع من ثالث شهور السنة الجديدة ، وبينما كان العجوز وحده بحجرته العلوية – بحانوته الحديث التجهيز – يتناول غداءه متأخرا إذا بكبير صبيانه «شحاتة» يخطره بإلحاح سيدة وقور فى طلبه . . .

– ألم تسألها حاجتها أولا ؟

– تريدك فى أمر شخصى . . .

– بعد أن آكل . . بعد دقائق عشر ، أكون معها . . .

استدار الصبى يهبط الدرج ، إلا أنه تذكر أمرا دفعه للصعود ثانية ، وقال !

– السيدة طلبت أيضا أن أقدم لك هذه البطاقة . . .

أمسك العجوز البطاقة باطراف أصابع يمناه ، فى تأفف ولا مبالاة . ألقى بها تحت بصره . . قربها أكثر ، ليعوض نسيانه وضع النظارة . . شملها بنظرة فاترة . وأمسك بيسراه كوب الشاى الساخن . . لكن كلمات البطاقة البارزة الطباعة ، استرعت انتباه العجوز . . جمدت كوب الشاى ، فلم ترتفع إلى شفتيه ، وثارت دفقة من الأحاسيس بأنحاء صدره . . .

ترك الكوب ، وأسرع يسبق الصبى فى هبوط الدرج . . تقدم بلهفة . . حدثه مرأى السيدة المتشحة بالسواد ، بوقوع أمر جلل . . وتقدم يسلم . ويجذب كرسيا . . فى حين جلست السيدة حيث أشار لها ، وراحت تعبر فى أسى . .

– لم يأت زوجى وجئت بدلا منه . . لقد لقى ربه منذ عشرين يوما . آه . . النكبة حلت عقب إجراء جراحة استخراج حصى من كليته . . أجل أصيبت كليتاه الاثنتان معا ، لكن الجراحة أجريت فى اليسرى أولا . . تلك التى حوت عددا أكبر . . سبع حصوات . . اليمنى كان أمرها أهون ، وبها واحدة . . ماذا؟ . .

لا ، لا أذكر إصابته بداء الكلى قبلا . . لم يشكُ تكوّن الحصى إطلاقا . . أنا نفسي أعيش كابوسا مخيفا . . خلال أربعة أشهر ، اتضح مرضه بصورة صاعقة مريبة . كأن استفحال مرض أخيه لم يكن يكفينا ، فرض هو كذلك . . كعادته ساق فى عناده ، وأصر على أن يعالج نفسه بنفسه . . ياه ! . . وماذا تفعل كلماتى . أو توسلاتى ؟ . . أنت لا تعرفه مثلى . . إذا انتوى أمرا ، لا يقوى أحد على إثنائه أو اعتراضه . . ليلة إجراء الجراحة ، كتب سطرين من أجلك . . لا لم أطلع عليهما . ولا فعل ذلك غيرى . . بعد أن غيبهما مظروفا . طلب إلى أن أسلمك إياه مع الحصوات . فى حالة . . قضائه نحبه . . آه يارب ! . . كدت أنسى . . لقد ذكر ليلتها شيئا . . أظنه عن أمانة لديك تخصه . . الصباح التالى أجريت له الجراحة . أجراها له زميل من زملائه المقربين . . وقد أسلمنى الجراح زميله الحصوات المستخرجة . . ولم يسلمنى زوجى معافى . . أستغفر الله . فأنا مؤمنة وممتثلة . لكن الفراق صعب ! . . معك حق ، كلنا سنجرع من الكأس . . آه . هذا هو المظروف . . !

فض العجوز المظروف الأزرق ، وأخرج الورقة المطواة . . نشرها ، وقرأ :

«عزيزى الحاج على . أنشد صفحك . أخى توفيق فى خطر داهم ، ولابد من أن أهبّ لنجدته . حسب قسمى لك ، والذى لن أحنث به أضطر لتكوين الحصوات الماسية بكليتى أنا ، ولا أحد غيرى . . حين تصلك سطورى . تكون الجراحة قد فشلت ، وأكون ساعيا للقائى المرتقب مع خالقى . . معذرة مرة أخرى ، فحياة أخى لدىّ أغلى من حياتى . وداعا وصلٍّ من أجلى .

دكتور عبد اللطيف شوقى

همس العجوز فى تأثر وقد مد يدا شاحبة مرتعدة نحو السيدة :

– الحصوات من فضلك !

– ها هى ذى !

ودون أن يفتح الكيس المعهود . واراه درجا خفيضا . . ثم تناول عشر حزم متخمة بأوراق خضراء ، غيبّها بداخل علبة ورقية . . واستدار إلى السيدة يضع العلبة بين يديها ، وهو يرى فى قسماتها خطوطا آسية .

وتمتم وهو يشيح بوجهه بعيدا يشاركها أساها بقلب أصيب فى الصميم :

– سيدتى . . هاك الأمانة الخاصة بزوجك . ولتصحبك السلامة !

# وسيظل لا يعرف . . .

فى مكالمة الأمس الهاتفية ، عادت زوجته تلح عليه – ربما للمرة العشرين – أن يأخذ إجازة ويعود . . قالت له إن جارتها حمراء الوجه الهولندية ، قد تشاحنت معها وسبتها . . وقالت له إن حريقاً قد شب فى مخزن الجرارات بطرف القرية ، ولابد أنه بفعل الإرهابيين . . وقالت له إن ابنهما «عازر» قد سقط من أعلى السور ، وهو يصلح كهرباء المصنع ، فكسرت قدمه . . وقالت له أشياء أخرى مزعجة . . لكنها لم تقلقه ، ولم تسبب له كدراً على الإطلاق . . .

لقد مضت أعوام عشرة طوال ، منذ تزوجا ، تعوّد خلالها ثوراتها الجامحة ، وشطحات مزاجها المأسوى الحاد على الدوام . . هكذا عمته المتصابية تلاحقه هى الأخرى بمكالماتها وأحاديثها الملحة ، التى لا تعنى أكثر من مال يتبدد هباء كأجور للاتصال . . بل إن العجب يكاد يتملكه ، فقد وضحت أمامه مؤخَّراً حقيقة

ما يعترى أعصاب سكان المستوطَنة المشدودة على الدوام . . .

ومال برأسه يستقبل لفحات الهواء الباردة . . أجل شخص واحد كان يشد عن كافة الخليط الذى يقابله على امتداد الرقعه المحاطة بالأعداء من كل جانب . . إنه أبوه ، تاجر الذهب الطيب الحكيم . . لقد جمعهم فى ذلك اليوم البعيد . هو وأخويه وأخته وأمه ، وقال لهم فى بساطة واقتضاب :

– سوف نترك القاهرة !

ويتذكر أن أمه صاحت مستنكرة : «هل أنت جاد؟»

لكن كلمات أبيه المتزنة انسابت محددة ، طيعة ، بلا استعجال :

– أعرف أنك أنت بالذات لديك الكثير من الاعتراضات . . الثراء ، رخص الأسعار ، رفاهة العيش ، حب الجيران . . كل هذا مقنع ، لكن الحرص وبعد النظر يقتضيان منا أن نرجِّح الجوهرة الثمينة على ما عداها . . .

وقد أشار إلى اتجاه الشرق ، وأضاف فى خيلاء : «إن المستقبل للعلم وانجازاته المدهشة . . وهذا سوف يندلع . . هناك !»

لحظتها تمتم وإخوته مبهورين : «إسرائيل ؟ !» .

وفيما بعد ، استقبلتهم أرض الميعاد ، برمالها الملتهبة ، وطابع قراها ومستوطناتها الآلى ، المُصَنَّع . . وبالخليط المتنافر الوافد من شتات الأرض وأنحائها غير المتجانسة . . .

لكن أباه ظل مصرا على عناده : «صبرا . . القلب هنا ، والجوار سيظل على مواته . . لأن العلم المتبلور حديثا إنما نحن وحدنا القابضون على زمامه !»

وعندما كان ندماؤه – كبار السن أو صغاره – يسألونه عن فعالية حضارات ذلك الجوار ومدى عراقتها ، كان يكتفى بإحناء رأسه ، وتحريك لسانه بكلمته

الوحيدة : «المستقبل . . المستقبل ! »

* * *

بغتة ، كاد ينكفئ على جبهته . . أحس بأن الحركة قد كفت من حوله فى واقع مولم ، لكنه شد قامته وراح يبتسم . . فقد أطلت عيناه على وحدات القول البديع من دبابات «الباتون» الصفراء . . حقا ، إن كلمات أبيه — ولو أنها تباطأت . أو هو يعد يكررها فى أيامه الأواخر — كلمات صائبة بالفعل . . فها هو ذا أصبع العلم يشير قبالته إلى أروع ما أنبت العلم من أجل الاستحواذ والتسيُّد . . القلاع المتحركة ، ذوات أمنع الدروع ، وذوات الأعين «الرادارية» والحرارية وأشد القذائف والصورايخ فتكا . . وميّز فوق الدبابات أعلامها المرفرفة ، وراقب أردية الضباط الجديدة ، وإن ضايقه عبوس سحناتهم . . ثم عاد جسده يتارجح ، وقد طوته حركة السيارة الرتيبة . . وخلفية الرمال المتوهجة تمتد وتترامى إلى مالا نهاية . . .

وبرز وجه زوجته مرة أخرى ، وسمع صوتها الرفيع يلحّ عليه فى أخذ الإجازة . . لكنه عجل بإقصائها عن مخيلته ، يعتريه إحساس مسيطر باللامبالاة . . وآثر عليها التفكير فيما قرأه مؤخرًا عن مقدرة فريق من علماء بلده ، أبرزت الصحف المحلية أسماءهم بأحرف حمراء عريضة ، فى حين تجاهلت تواريخ توافدهم القريبة . .

وراح طيف مبهم ، لكنه مضىء يداعب خياله . . وهمس لنفسه فى إعجاب : أحقا لديهم علماء كبار يغيّرون ويبدّلون ويطوّرون فيما ترسله إليهم أمريكا من أحدث منتجات ترسانتها الجوية . . هل صحيح قد تناول إسرائيلى مثله طائرة «الفانتوم» بالتعديل أيًّا يكون . . وإن لم تكن هذه هى المقدرة العلمية ، التمكّن

التكنولوجى ، فعلى أية صورة مغايرة يكون . . وعاد فمه للانفراج فى تسلّط والحاح ، حتى أوشك على القهقهة . . فقد تذكر اللوحة الذهبية التى نقشت ، والتى يعاد نقشها كل حين فى عقله وفؤاده وخلايا بدنه . . أو.لا يحق لهم أن يذهبوا إلى أبعد الحدود ، وقد استولوا بلا قتال يذكر على مساحات من الأرض العربية لم يكونوا ليحلموا بعشرها ولو اشتط بهم الخيال ؟ . . ثم – والأهم – لقد أسكتوا فعالية ، وربما حطموا تماما لعشرات الأعوام ، أقوى جيوش المجابهة ، التى طالما حسبوا لها ألف حساب . . .

ومدّ عنقه برغمه يرسل نظرة قلقة تجاه الغرب ، يحاول عبثاً أن يستشف شيئاً غامضاً ، كثيرا ما حدثته نفسه أنه يكمن هناك . . قصيا ، فيما وراء شريط القناة المائى ، الذى يوشك وجماعته على بلوغه . . .

لكن الهدير المتجمع عنيفاً فى أذنيه وفوق رأسه سرعان ما أخرجه من مخاوفه . . فهذه العموديات الضخمة ، التى لا يمتلك العدو أمثالها ، تبعث فى صدره إحساسا بالأمان يعلم أنه دائم الاحتياج إليه . . حتى إنه يملأ حجرات نومه – عبر المعسكرات التى يتنقل بينها –.بصور ونماذج العمالقة الخرافية . . فإذا ماتطلع إليها وراقبها أطمأن قلبه ، وشمله شعور بالاستهتار حيال عدوه . . . سأل مرة قائده الأعلى ، ومظلة من ثمانى عموديات متلألئة تعبر السماء فوقهم .

– هل لدينا الكثير من هذه الوحوش ؟

وزمّ القائد شفته المتورمة : «بأكثر مما تتصور ! »

وفى تردد ، جرؤ على أن يسأل ثانية : «وهم . . فيما وراء القناة ؟»

رد القائد الأعلى ، وعيناه تضيقان فلا تفصحان عما يملؤهما من زهو واعتداد :

– ولو امتلكوها . . فهل يقدرون على امتلاك أسرارها . . مثلنا ؟ ؟

ثم انطلق يحدثه فى حماس وطلاقة عن الفارق الشاسع بين قدرات دولتهم – التى تضم خلاصة الفكر العالمى وقمة علومه – وقدرات الآخرين ، المحيطين بها . . وظلت كلمات القائد الأعلى لأشهر عدة تبعث الدفء بين أضلعه ، إلى أن توالت ببطء تلك الأيام المريرة ، مما أسموه بحرب الاستنزاف . . وحينئذ كاد يغيّر من آرائه ويظن بحماس قائده الأعلى الظنون . .

لكن فوادا آخرين ظهروا فى الوقت المناسب . . انتشروا بينهم واحتووهم . . وفى اللحظة الفاصلة ، اتضحت حقيقة ما يكابده المصريون فى أعماق بلدانهم ، نظير جرأتهم على الاقتحام والقتال . . فى حين قلّل القواد من حجم الخسائر الإسرائيلية المبالغ فيها بلا ريب ، وساعتها هدأت نفسه ، واسترد ثقته . . فإن ذراع حاميهم الوسيم ، ذا العين الواحدة ، ذارع طويلة . . وقادرة بالفعل !

* * *

«خط الدفاع الاستراتيجى على قناة السويس» . . .

لثوان لم يملك الفكاك من سيطرة خواطره . . على أن هزة من كف – زميله الرقيقة ، ككفوف النساء ، أيقظته . . وحين قفز إلى الأرض الخشنة استقبله مرأى الاستحكامات المتشابكة فى واقع مفاجئ احتبست له أنفاسه . . إذن هى أخيرا واحدة من قلاع المانع الصناعى ، المتتابعة بطول مائة وثمانين كيلو مترا من جنوب بور فؤاد إلى شمال بور توفيق ، والتى أشرف قائدهم الشهير على إقامتها وسميت باسم : «خط بارليف» ؟ !

– ألأنت الضابط ليفى ابراهام ؟

استدار يواجه الجندى قصير القامة : «أجل» . .

– إذن اتبعنى . .

وتحت كتل الحجارة الصماء ، المضمومة فى مربعات بشبكة من أسلاك الفولاذ ، احتواه باب عملاق يستقيم مصراعه المدرع على مجموعة متراصة من العجل . . وعبّر ممر واطئ تضيئه الكهرباء سار فى أعقاب الجندى ، ليلج فى النهاية حجرة تسبح فى ضوء باهر ، ركّز أغلبه على خريطة متسعة لسيناء . .

من خلفه تصاعدت نغمة أجشة : «اجلس !» . .

فجلس وعيناه تستوعبان محتويات المكان فى فضول : الخريطة . الدولاب المعدنى ، الرفّ وعليه مروحة الكهرباء المغطاة ، المنضدة حاملة زجاجة الشراب وبعض المعلبات ، ومضرب التنس المسند إلى الحائط . . حتى استقرتا على المكتب الخشبى الأملس ، وعليه مدفع أسود رشاش . وخلفه شعر غزير ولحية بنية مجعدة . .

– قادم . . من جبل المرّ . . أليس كذلك ؟

– كنت الضابط المسئول عن حراسة موقع ذلك الجبل . . أنا ليفى ابراهام هاتشوكر . .

مد صاحب الشعر الغزير واللحية البنية ساقيه ، فأطل حذاءان دقيقان لامعان من أسفل المكتب ، فى حين تراجع جانب وجهه إلى ما تحت «اللمبة» ، فاتضح مبلغ بياض بشرته . .

– سأوليك كذلك تنظيم عمليات الدفاع عن موقعنا . . هنا ، وفى مواجهة السويس . . !

وقلب الرجل أوراقا أمامه ، حتى توقف لدى واحدة . .

– أنت مصرى المولد !

قالها وقد شاب صوته بعض الفتور ، لكنه لم يتردد طويلا ، فقد أضاف وهو

يجمع الأوراق ويسكنها درجا قبالته : «لا يهم . . سوف يتم كل شيء تحت إشراف المباشر . . »

عندئذ عرف ليفي أن المقابلة القصيرة قد انتهت ، فهرع من فوره - يصحبة نفس الجندي القصير - إلى الحجرة الدافئة . التي خصصت له بالطابق الثاني من الموقع . . .

واتجه ذهنه إلى زوجته . والفراش يحتضنه لأولى لياليه في تحصينات «بارليف» . . لقد بعدت المسافة بينهما خمسة عشر كيلو مترا . . وعلى عكس كافة زملائه المجندين . لقد كان يؤثر مشاق الكُمون في أيٍّ من المرابض العسكرية الموحشة . على التواجد بين أسرته وذويه وفي بيته . . لمجرد الهرب من المرأة المشاكسة . التي تم ارتباطه بها في غفلة منه . . .

* * *

وفي الصباح الباكر . بادر بالصُعود إلى قمة الموقع قبل أن يتناول إفطاره . . وهناك فوق الحجارة المقيدة بالأسلاك ، اختار واحدة أكثر استواء عن غيرها . واعتلاها . . ياللعظمة ! . . إنه لم يكن يتصور الموقع بكل هذه الضخامة ، وعلى كل هذا الاتساع . . ولم يجد الموقع جسما جبارا فحسب . وإنما اكتشفه يموج بالحركة كذلك . . هذه المدكات والرافعات تسوى الطرف الشرقي البعيد ، وكذا عدد من سيارات المياه والتموين تفرغ حمولاتها ، وأكثر من طابور من الجند يزاولون تدريباتهم الروتينية . . وجنوبا . دبابتان تتزودان بالوقود . ثم عشر دبابات تنسجم في تشكيل واحد منسّق . .

لكن . . وهذا قد أثار حيرته . . فما بال الجانب الغربي للقناة يرفل في صمت وسكون ثقيلين ، مريبين . . وحين حمل تساؤله لدى هبوطه إلى واحد من قدامى

الضباط زملائه أجابه مستخفا من سذاجة السؤال . وهما يجلسان متقابلين على مائدة الطعام :

– وماذا تتوقع من المصريين أن يفعلوا ؟

– لا أدرى . لكنهم أعلنوها سنة للحسم . .

وحشر الرجل قطعة كبيرة من الخبز بين أسنانه . وأخذ يلوكها على مهل :

– حسم ماذا ؟ هه ؟ . . اسمع يا ليفى . أنت لم تجابه المصريين مثلى . . صحيح هم شجعان . وعلى قدر من التحمل والصلابة . . لكن ماذا يفيدهم الذى أذكر أمام ضخامة وعنف نيران الآلة الإلكترونية المعقدة . التى نطوّعها نحن ؟

لوى ليفى شفتيه معترضا : «السلاح المطوّر ليس مقصوراً علينا وحدنا . . »

– لكن التدرب عليه يتطلب استعدادا وفهما علميا لدى الأفراد . . .

وابتلع اللقمة ثم صرخ : «خذ مثالا . . من يمتلك زمام الجو . أنحن أم هم ؟ . . بالطبع . السيادة الجوية وقف علينا . . والفضل للتدريبات الصعبة المضنية . على مجموعة إلكترونيات نفاثات اليوم القاذفة المقاتلة . . »

وهم ليفى أن يقول شيئا . لكن الضابط العريض الكتفين – فى غير تلاؤم مع بقية بدنه . وعلى الأخص طول ونحافة ذراعيه وساقيه – لم يعطه فرصه . وإنما لوّح فى وجهه بقاعدة ملعقة يمسكها مقلوبة وقال فى تعالٍ :

– ومع كل . حتى لو حاولوها . . ولنتحّ جانبا حاجز القناة المائى . فهل يقوون على اختراق تحصيناتنا ودفاعاتنا . ولا أقول الاستيلاء عليها . . بأيه صورة من الصور ؟

– لكنهم اخترقوا التحصينات خلال حرب الاستنزاف . .

– لا . لا . . كانت تلك مجرد شراذم من الفدائيين . تنفذ فيما بين

التحصينات . ثم تبادر حالا بالانسحاب . .

وأكمل ضابط ثالث متورم الصدغين ، انضم إلى مائدة قريبة ، فى سخرية : «تنسحب . . بعد أن تكبدنا الكثير من الخسائر ! »

بان الامتعاض على وجه محدث ليفى الأول ، وقال : «عدنا نردد أقوال إذاعات العدو . . ! »

ابتلع الضابط الثالث ريقه ، وقال فى غلظة : «بل إنه ترديد لولولة أمهات القتلى وذويهم . . »

فى حين مال ليفى برأسه ، وهمس : «لقد أغضبته ! »

– إنما هو غر حديث التخرج ، من أبناء الموجة المطالبة بالإصلاح . . لا تهتم به وهيا بنا . .

– إلى أين ؟

– نتفقد ما حولنا . . .

وجذب الضابط ليفى من ذراعه ، وانطلق يطوف به مخابئ وأنفاق وخفايا الموقع الغائص برمته فى أعماق التربة . ووسط دروع الفولاذ ، وحوائط الحجارة والأسمنت . .

«هناك أربعة وعشرون موقعا تماثل موقعنا . بامتداد ضفة القناة الشرقية . . كلها مدعمة بخراسانة الأسمنت السميكة ، وقضبان الفولاذ العريضة . . والمواقع القوية – وموقعنا أحدها – منظمة بطريقة الدفاع الدائرى . . وجميعها تقبع تحت الأرض ، ومغطاة من أعلى ، لتتحمل الإصابات المباشرة . . كما أنها كلها محوطة بأسوار مزدوجة من السلك الشائك وحقول الألغام . . ومجهزة فى نفس الوقت – بوسائل الاتصال السريع ، وشبكة محكمة للإنذار الإلكترونى التلقائى . وأما عن

الذخيرة والمياه والتموين ، فقد خزّنت بكميات مهولة . . كما عززت المواقع بأكبر قوة تركيز للنيران عرفها التاريخ العسكرى . وتتراوح من الرشاشات إلى المدافع والصواريخ بعيدة المدى . . وكلها منيعة . . عصية . . »

وفى الحجرة العلوية . الواطئة السقف . والمطلة – من خلف مكمن عميق – على شاطئ القناة ، توقف الضابط قبالة مجموعة من الأزرار الكروية الرءوس . . ومد أصبعه ليشير إليها فى صلف وغرور ، لم يقو على كبحها :

– أما هذه الحجرة . فلعلها على ضيقها تمثل قمة الجهاز العلمى – للدفاع عن موقعنا . .

وحملق ليفى فى الأزرار «لقد سمعت عنها . . إنها المتحكمة فى الأنابيب قاذفة المواد الملتهبة !

– تماما . . بدفعة أصبع يسيرة ، تتحول صفحة القناة إلى أتون مشتعل فى وجه القادمين !

* * *

وبات ليفى ليلته الثانية يحلم بالأزرار السحرية ، وبالدفاعات الديناصورية التى تحميه من كل جانب . . أما وجه زوجته ، فقد غاب كلية عن عقله الباطن ، الذى ظل يرتع الليل بطوله ، متحديا جحافل المصريين وهى تحمل الرماح والأقواس . . فإذا ما شهر كفه وأطلق منها النار الخفية ، كما يفعل الحاوى ، انحسرت جموعهم على الفور وتبددت فرقا . .

وأيقظوه من حلمه على اللقاء المنتظر ، والذى كان يوقن بوقوعه مهما تأخر ، ومهما حاول التهرب منه فلا يلبث أن يستسلم له فى النهاية . .

– زوجتك تطلبك بالهاتف . .

تثاقلت خطى ليفى برغمه . حتى عبر الممر . وتناول السماعة البلاستيكية الخضراء اللون :

– كيف حالك يا أشير ؟

وانهمر سيل من الكلمات الزاعقة : «كيف حالك أنت ؟ . . قلبى معك . . بعدك يترك فراغا بيننا . . هذه قسوة منك أن تختار موقعا أبعد . . ابنك قدمه المجبسة تعوقه ، لكنه بخير . . المهم أن نراك أنت . . لابد أن تأخذ إجازة اليوم . لتكون بيننا فى الغد . . الغد هام لديك . وإلا فهل نسيت الرابع من أكتوبر ، يوم مولدك ؟ ! . . » .

يا لمرور الأيام ! . . معها حق امرأته . فى الغد تكتمل التسعة والعشرون عاما على اللحظة التى تعالت فيها أولى صرخاته . . فى حى الأزهر . أقدم أحياء العاصمة المصرية وأعرقها . . وقلب فى أعماق ذاكرته . لكنه لم يجد غير ملامح نائية مبهمة ، تكاد بدورها تنمحى نهائيا . . فقد هاجر وابتعد عنها وسنه لا تتعدى السابعة ، لكن أباه على نقيضه . وأمه كذلك . . كانا حاضرى الوعى بأيام القاهرة وأماكنها . وبسخاء تلك الأيام وهدوئها . . ولولا يقين ذكى من أبيه بقيمة الجوهرة التى ستنمو وتكبر ويتقطع نظيرها . فى هذه البقعة بعينها ، من أرض الفلسطينيين . . جوهرة العلم والتكنولوجيا . . لولا يقين راسخ بأهميتها ومدى فعاليتها لمن يملكها . . بل هى المستقبل بكل معانى القوة والسيطرة وبكل معالم الخير والثراء . لمثل شعبهم المحدود والمحاط ببحر يزخر بملايين السواعد المتربصة . . أجل لولا ذلك ، لما فضّل أبوه على الأرجح أن يترك الموطن الحسانى الذى آواه وآوى أجداده من قبله . .

وقفز إلى رأسه سؤال مباغت . . ترى هل ابتدأ ذلك المستقبل البراق بانتصارهم فى حرب الأيام الستة . التى يمجدونها ويلهجون بمآثرها كإله جديد ،

يخرق نفوذه ما جاء فى «بروتوكولات» حكمائهم السابقين . . هل ابتدأ مستقبل شعبهم الآمن فى أعقاب هذه الحرب ؟ !

وأحس بعدم القدرة على الرد بالإيجاب . . قد يستطيع إخفاء الحقيقة عن الناس ، لكنه لم يتعود أن يحجبها عن نفسه . . للآن لم يزد الأمر عن مجرد الاستيلاء على رقاع من الأرض غالبيتها قفر . . وأما الأجزاء الآهلة بالسكان ، فإن هؤلاء يأبون الانضواء تحت لواء نجمتهم السداسية . . للآن لم يرغموا عربيا واحدا ، بطول وعرض الخطوط التى تمتد عليها مدافعهم ، على الرضوخ والقبول بالأمر الواقع . . للآن لم يحققوا أمنا واستقرارا بالمفهوم الواضح . . وبالتالى ، فعلى مدى الأعوام الست – من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ – قد استحال عليهم أن يخفضوا فوهات مدافعهم المتشنجة . . والأهم من هذا استحال عليهم أن يريحوا الرجال المرهقين المتوترين خلفها !

لكن أعواماً ستة زمن قصير فى عمر الشعوب . . إنه لحظة ، هكذا يؤكدون . . ومادام السكون والصمت يشملان مرابض العدو ، فهذا دليل على توقف حركتهم . . وإذا ما توقفت حركة العدو ، فالأمر ليس فى صالحه . . دواما الكسب فى جانب من يملك الحركة ، التفاعل ، الانطلاق . . تحت لواء الجوهرة الثمينة ، كما حدّد أبوه . . .

وحين ولج ليفى حجرته فى الطابق الثانى من الموقع ، وطالعته صور العموديات معلقة على حوائط الحجرة الأربعة ، زاهية متألقة ، خيل إليه أنه يسمع هدير محركاتها العلوية كذلك . . عندئذ أطلق آهة ملتهبة ، اجتاحت الراحة على أثرها خلايا بدنه ، خلية وراء خلية ، تبعث الخدر والتراخى فى أنحاء مكوناتها . .

ولم تقو كارثة إغلاق معسكر مهاجريهم با لنمسا على زعزعة راحته . . ولا قدرت

الأخبار الكاذبة ، بل المغرضة بالفعل ، التى تقول باستعداد المصريين والسوريين للهجوم عليهم على أن تمحو هدوء أعصابه واطمئنان قلبه . . حتى همهمات الضباط والجند من حوله وبالرغم مما يعتريهم من قلق وتوجس ، لم تكن بمستطيعة هز إيمانه ! . . وعمودياته المقدسة تطل عليه برخيم هديرها وجمال لمعان صواريخها . .

* * *

وصبيحة اليوم التالى – يوم ذكرى مولده – صعد ليفى إلى قمة الموقع ، وراقب بمنظاره المقرب مواقع المصريين جيدا . . لا ينكر أنه قد شاهد هذه المرة بعض مظاهر الحركة بينهم ، لكن أى جديد فى تغيير أماكن عدد من حمالات الصواريخ ؟ . . وما الذى يريب فى تواجد لفيف من الجند أو الضباط ، يراقبون بدورهم المواقع الإسرائيلية ؟

لا . . إنه ليقسم أن ليس هناك تحرك واحد غير عادى . . ليس هناك ما يخيف بالمرة فالبلدوزرات مستمرة فى رفع الرمال لتعلية السواتر لديهم ، والجند غير المسلحين يجلسون على حافة القناة وأرجلهم مدلاة فى الماء ، يصطادرن ويلهون . . وبستانى «الفيلات» القريبة يقوم بريها كعادته منذ هجرها أصحابها . . . ومظاهر أخرى لا حصر لها ، تدل على نفس حالة الركود ، راح يرصدها ليومه الثانى على الجانب المصرى . . بل لقد لمح جماعة من الجند يؤدون صلاة الجمعة فى العراء ، فى استغراق وخشوع كاملين !

وجاء يوم آخر ، السادس من الشهر . . لكن ليفى لم يعاود الصعود ، ولا اعتنى بالمراقبة جيدا من داخل المربض الأمامى . . فاليوم السبت ، يوم العيد ، يوم الراحة والاسترخاء . . وإنما انصبت عنايته على تناول وجبة مطهوة تغاير وجبات المعلبات الباردة ، وإشعال سيجار كان يدخره لهذه المناسبة . . ثم نظر فى ساعته ،

فوجدها تحدد ثلاثين دقيقة بعد الواحدة ظهرا ، فتناول رواية من تأليف « يائيل ديان » ، وأسرع يستلقى على الفراش يلفه عالم عمودياته . .

وأوشك النوم أن يغزو جفونه ، حينما ارتج سريره مرتين متتاليتين . . وحينما أسقط الرواية من يده ، واعتدل فى رقدته ، تتالت دمدمات أكثر قربا . . ولم يصدق أذنيه مع ازدياد الانفجارات ، واختلاط رجفاتها العميقة بصيحات مختنقة تتصاعد نائية سحيقة ، فلا يميز منها غير كلمة : «هجوم» !

وحين غادر الحجرة بمنامته ، وطوى درجات السلم قفزا إلى الطابق الثالث . صدمه واقع يغلى بالفوضى والاضطراب : «لقد بدأ المصريون هجومهم المباغت علينا» !

ما الذى يسمع ؟ . . هل اختلطت الكلمات فجاءت معكوسة ، عصية ؟ .

هل جن القوم حوله فأصبحوا يهذون ؟ !

وتعالى دوى النفاثات يشق السماء فوق رءوسهم . فصاح ليفى فرحا من أعماقه :

– ها قد أقبلت طائراتنا !

وقاطعه صوت متهدج ، مثقل : «بل هى طائرات العدو . . ! » .

حينئذ فارت الدماء فى عروق ليفى من غباء ذلك الرجل . وألقى بعنقه يطل من كوة المراقبة إلى أعلى ، إلى حيث تمرق النفاثات . . .

– إنها تنقض فى اتجاه الغرب . .

– قلت إنها طائراتهم ، «الميج» . . تعود بعد أن ضربت مواقعنا . . .

ولم يفهم ليفى : ألدى الآخرين مثل هذه الأعداد من النفاثات ؟ . . ومن الذى يقودها ؟ . . على أن جحيماً آخر فتحت أبوابه . . عشرات من القنابل

تلاحقت تنقض وتدك مواقعهم . فهل أخطأت مدفعيتهم طريقها . وبدلاً من أن تصلى قوات العدو على الجانب الغربي . راحت تصليهم هم نيرانها الحامية . . إن دقة التصويب امتياز مقصور عليهم وحدهم بالتأكيد . . .

«المصريون ينزلون الزوارق إلى الماء» ! . .

«إنهم يعبرون الآن» ! . .

وعاد يجرى إلى كوة المراقبة . . وصفع بصره مالم يره من قبل فى مثل هذه الكثافة والإصرار ! . . وجه القناة فقد كل لمعانه ، فهو مغطى عن آخره . . ما من جزء من مياهه يخلو من جسم انسيابي يغطيه ! . . وحدق من خلال أشعة الشمس التي تواجهه ، فشاهد - فيما يشبه الحلم - مئات الزوارق والناقلات تتزاحم فى اتجاهه . وقد ازدحمت عن آخرها بالرجال . . وركز بصره فى عصبية أكثر . . إنهم يشهرون العديد من الأسلحة . ويوجهون أيضا الصواريخ . . .

وانحنى محموما يضغط الأزرار . . .

لكن ما بال المياه لم تشتعل أتونا ملتهبا فى وجه القادمين ؟ !

عندئذ استدار يصرخ فى رجاله . يطالبهم بالتركيز . وبالصمود . . فالقبضة . . الحديدية الإسرائيلية سوف توقف كل الذى يرون ويكابدون . سوف تسحق . وتطهر ، وتكتب لهم النجاة ! . .

ولم تكتمل صرخات ليفى . . ماتت أوامره . فقد اعتصره ضغط هواء مفاجئ . وصكت سمعه أصوات تمزق وتكسر مرعبة . . ثم التقطت أذناه المشوشتان جملة مشروخة : «خلفنا دبابات مصرية من طراز (ت - ٥٤) ، تصلينا بنيرانها» !

ثم زاد غموض الكلمات الثقيلة التي تختلط بالانفجارات . «عموديات مصرية

كثيرة فوق موقعنا رأسا» ! . .

لا ، هذا لا يكون . . ليست العموديات مصرية على الإطلاق . . إنه يغرم بالوحوش الضخمة ، يعبدها . . فلماذا تخذله ؟ . . لماذا تعطى أسرارها الخطيرة لسواهم ؟ . . . وانطلق عبر الممر ينشد الخروج إلى العراء . . ليس استجابة لصيحة اليأس والفرار . وإنما ليتأكد من عدم خيانة طائراته العمودية المعبودة !

ثم برز عدد من الأشباح فى نهاية الممر . . شقوا الجدار . أو هبطوا من السقف . . وانتصب أحدهم بقامته الفارعة يسد طريقه . . وأجهد ليفى عينيه المتعبتين الدامعتين ليتبين الشبح . . كان ماردا عملاقا ، عملاقا . ليس على شاكلتهم . . هل . . هل يوجد آخرون غيرهم بداخل الموقع ؟ . . هل يوجد وسطهم مردة سُمْر جادّو الوجوه ؟ !

آه . . ماذا ؟

وصعقه عمود من نار فى صدره . . آه ! . . وآخر فى كتفه . . ترنح بشدة . . كاد يسقط ، وغشى ضباب أصفر تعكر عينيه . .

ولمح المارد يزداد ضخامة . . يكبر ، يكبر . . بينما صدره هو يحترق ، ويحترق . . وجسده يحس هبوطا ، وتداعيا ، وانهيارا . .

المارد يزداد اقترابا وكبرا . وهو يسقط على ركبتيه . . المارد يكبر ويكبر . وهو ينكفئ وينحنى . . حتى سقط رأسه قبالة الحذائين الضخمين المتربين !

## اللقاء الرهيب

كانت العاصفة الترابية قد بدأت تهب على أشدها . . ألسنة من شواظ التربة راحت تندفع نحو السماء فى دوامات عنيفة . . وعاليا من نهايات الدوامات ، كانت تخرج رءوس عكرة تنتشر ، وتختلط ، فتزداد عتمة الأفق . . وتزداد حدة واسترسال الصفير المقبل . .

وأشار الرجل بالمقدمة إلى رفاقه الخمسة ، إشارة ذات معنى . . ثم أسرع يتبعه الباقون ، نحو جسم رمادى عملاق ، له أرجل معدنية تشبه أرجل العنكبوت . . وخلال تقدمهم ، كان الرجال الستة يبذلون جهدا مضاعفا ، فقد كانت أرديتهم الثقيلة ، بيضاء اللون ، تعوق حركتهم .

أخرج الرجل – الذى فى المقدمة – جهازا فى حجم علبه الثقاب ، ضغط على زر فيه . . انفتحت بالجسم العملاق كوة ، هبط منها سلم ، فانتحى الرجل جانبا

يتيح لزملائه الصعود ، الواحد وراء الآخر ، وهم يحملون أرديتهم فى مشقة ، ثم فى النهاية صعد الرجل ، وكان أقصر زملائه كذلك . . وأغلق الكوة وراءه . .

خلال دقيقة ، انكمشت أرجل الجسم العنكبوتية حتى اختفت ، ليحل بدلا منها – ببطن الجسم – «جنزير» عريض . . وتحرك الجسم بتحرك «الجنزير» ، وفى لفتات متشنجة ، استدار ليتجه ببطء إلى خانق غائر فى قلب قبة صخرية ممتدة الجوانب ، مسننة الحواف . . ولم يبق ظاهر من الجسم العملاق سوى قمته . . حيث اتضحت نافذة بيضاوية . .

من خلف رقائق «البلاستيك» الشفافة ، التى تغطى النافذة والقوية فى صلابة الجسم الفولاذى نفسه ، أطل رأسان يرقبان مشهد العاصفة الفريد فى شغف كبير . فى حين انغمست الرءوس الأربعة الأخرى فى دوامة عمل ، يتصل بكافة ما تحمله المركبة الكونية من أجهزة معقدة ومعدات بالغة الحساسية . .

ولم تدم روعة المشهد . . فسرعان ما طمست الأتربة الكثيفة مجال الرؤية ، وحولته إلى قوام ثقيل ، مظلم ، بنى فى لون القهوة المحروق بنها . . .

«العاصفة الترابية آتية من اتجاه الجنوب الشرقى ، من قمة القطب الجنوبى . . وحسب تقديرات الحاسب الإلكترونى المتصل بالأعين الرادارية وأجهزة الرصد بالمركبة ، فسوف تنقشع العاصفة عن منطقة رسوهم ، بقرب خط الاستواء . خلال ٤٠ دقيقة» .

– انظر ! . . هناك شىء يتحرك . . يسارا . .

وحدق وجه الرجل القصير ، من خلف حاجز البلاستيك ، وكان قد نزع عنه قناع ردائه . .

– غير ممكن . . الكوكب ليس مأهولا . . .

– بل أرى ظلا يتحرك . .

– أين ؟

– على حافة التبة ، وسط الأتربة البنية . .

– لا ألمح شيئاً . .

– إنه يشبه حيوانا . قردا ، أو دبًا غزير الشعر . . !

– لا أراه . إطلاقا . .

وأجمعت بقية الرءوس ، التى هرعت على عجل على أنها بالفعل لا تميز شيئا . .

– لقد اختفى . .

بعد ساعة زمنية انقشع الجو ، واتضحت معالم الأفق بتفاصيله المثيرة من جديد . . بجباله الشاهقة ذات الجروف المعرّاة بتأثير لفح الرياح ، وأوديته الجرداء من النبات ومن كل أثر للحياة . . وبحاره المكشوفة القاع ، وبراكينه الخامدة . . وبذلك اللون المتدرِّج من الأزرق الداكن . إلى الأخضر الداكن ، إلى البنى المصفرّ ، فالأصفر . . يغطى كل ما تقع عليه العين . .

وهبط الظلام بعد ٢٥ ساعة . . اليوم هنا يزيد عن يوم كوكب الأرض بساعة واحدة . . كذلك فروق الحرارة طفيفة . محتملة ، تتراوح بين ٢٠° فوق الصفر و ٤٠° تحته ، كما أن الجاذبية هنا تساوى ثلثى الجاذبية على سطح الأرض . .

ولا يتبقى ما يشكّل خطرا حقيقيا على الرواد الستة سوى أمر واحد ، لكنه بالغ الأهمية . . فالجو هنا خال من غاز الأكسجين تماما . . هكذا أنبأتهم أرصادهم السابقة ، وهو نفس ما اضطرهم للتقيد بالأردية الثقيلة فى رحلتهم هذه . .

وحل نوع من السكون يعكره هبوب ريح لا تكف عن الصفير بالخارج . .

وغلب النعاس رواد المركبة الستة . وبقيت عين إلكترونية حارسة ترقب من اتجاهات عشر . .

لقد كلفتهم الرحلة ثمانية وعشرين مليونا من الجنيهات ، وكلفتهم خمسة أعوام من السجن الاختيارى ، قطعوا خلالها ٢١ مليون مليون ميل . بتلك السرعة الخيالية التى بلغتها سفنهم الكونية مؤخرا ، تصل سبعة أعشار سرعة الضوء ، فلا يجدون غير الخواء . . ولتنعَسْ عيونهم بعد يوم حافل مضن . فيناموا فى قلب صحراء جرداء زرقاء . .

مع إشراقة قرص . . باهت . ضعيف الضياء . وقسم القائد قصير القامة جماعته إلى فريقين : اثنان بقيادة نائبه يلقون نظرة على الجانب الشمالى من التبّة ، ويلتقطون صورا وأفلاما سينمائية ، ويجمعون عينات صخرية . . واثنان بقيادته هو . يعتلون تلك الفوهة البركانية الخامدة . ليتبينوا ماوراءها . ويلتقطون أيضا صورا وأفلاما ، ويجمعون عينات . .

حمل الفريق الأول معداته واتجه إلى غايته . . .

وحمل الرجل القصير ورفيقاه معداتهم ، وشرعوا يصعدون فى اتجاه الجزء – من حافة الفوهة – الأقل وعورة ، وسط الحصى الأزرق «المخرفش» ، وقطع الحجر الأملس المتدحرجة . . وهذه التقفات من مكونات شفافة مسننة ، مثل الزجاج . . وتحت ثقل الأردية المكيَّفة ، كانت كل خطوة فى الصعود عملية عذاب . .

لكنهم بلغوا القمة . .

وحين هموا بافتراش التربة ، ليلتقطوا أنفاسهم برهة من الوقت ، رأوه هناك ! . . فجأة وجد ثلاثتهم أنفسهم وجها لوجه مع الآخر . . منفردا ، قصيرا جدا ، فى نصف قامة إنسان أرضى . . ملتحفا بفراء دب ، مغطيا وجهه بقناع عاكس كالمرآة ، فلم يتبينوا حقيقة قسماته ، إن كان له وجه . .

وكان بشب على ساقين قصيرتين ، منفرجتين ، وله ذراعان تحملان ما يشبه قاذفاً للهب . . وكانت الذراعان والساقان مغطاة برقائق معدنية براقة . .

وشهر الرجال الثلاثة أسلحتهم النارية على الفور . . ثلاثتهم ضد واحد . . الفرصة بالنسبة لهم أكبر !

لكنهم لاحظوا سكونا على حركة الكائن ولاحظوا أن فوهة قاذف اللهب خفيضة ، تأخذ الاتجاه إلى أسفل . .

فخفضوا بدورهم فوهات أسلحتهم . .

وساد صمت امتد توتره إلى أقاصى الكون . . إلى أبعد جوانبه الموغلة فى التيه والانعزال ، بما يحتوى من أجرام لا حصر لأشكالها وأحجامها وأعدادها . . وبما فيه من أسرار ومعميات وأبعاد فوق كل إدراك . . .

وحفر على إحدى صفحات الأزل ، فى نقطة من نقاطه التى لا بداية ولا نهاية لتتابعها ، حدوث أول لقاء بين نوعين راقيين من الكائنات ، من كوكبين مختلفين . .

بعد دهر تحرك الكائن . . فى ثقه بسط يدا مكتنزة ، مصفرة ، خضراء العروق . . رفعها إلى أعلى فى هدوء ، ثم عاد فمدها أماما فى اتجاه أقرب الرجال إليه . .

استجاب القائد للتحية ، فلمس اليد الباردة فى حذر . . وتبعه رفيقاه . .

وأشار الكائن برأسه فى إتجاه الجانب الآخر من فوهة البركان . . هناك شاهد الرجال ما يشبه السيارة تربض فى ظل صخرة . . وحرك ذراعه يدعو واحداً منهم إلى مشاركته ركوبها . . .

إلى أين ؟ . . كانت بحق مغامرة مجنونة . يطل من ورائها شبح الغدر بأوضح صوره ومعانيه !

تسمر الرجلان ، لكن القائد أومأ بالموافقة . . وحاول رفيقاه أن يثنياه عن عزمه ، بمخاطبته فى قسوة ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى بقناع كل منهم ، لكنه أصر . . فقط طلب منهما إخطار الباقين بتغيبه مع الكائن ، وانتظار عودته حتى صباح اليوم التالى ، وإلا فليقلعوا على الفور ، مبتعدين عن هذا الكوكب وساكنيه . .

ودون أن يجيبهم سار فى أعقاب الكائن ، ودخل السيارة التى تبين فيها نوعاً مطوّرا من الحوامات ، لا تضم سوى مقعدين ، انحشر فى أحدهما بمشقة . . وسرعان ما همّت الحوامة بارتفاع أربعة أمتار أو خمسة ، واندفعت فى ليونة لتختفى ، دون صوت أو اهتزاز ، فى طيات عفرة أثارتها محركاتها القوية . . فى حين جمد صاحبا القائد فى مكانهما حائرين مشدوهين . .

* * *

فى جولة استغرقت قرابة الساعتين بالحوامة . التى كانت تندفع بما يفوق سرعة الصوت أربعة أضعاف ، تفقّد القائد من رواد الأرض حضارة الكوكب الأزرق بأدق وأروع تفاصيلها . . القنوات العظمى التى تشبه قنوات المريخ ، تمتد آلاف الأميال لجلب المياه عقب ذوبانها من كلا القطبين – الشمالى والجنوبى – حين يحل بأيهما فصل الصيف . . ومداخل وقباب التهوية للمدن التى بُنِيَت بأكملها تحت

سطح الأرض . . وشاهد أكثر من مرآة ضخمة لتجميع أشعة النجم وتركيزها ، بغرض استخدامها صناعيا . . ومستعمرات من لدين يشبه الزجاج ، تضم أنواعا داكنة الاخضرار من نباتات متسلقة ذات أوراق عريضة . : .

وشاهد أيضا بقايا مدن مقامة على سطح الكوكب ، شيدت دورها على هيئة قباب مستديرة وأهرامات ومصاطب ، تحيطها أسوار عالية . . وتجمعات لحظائر حيوانية خاوية بأكملها . . وأجسام مستطيلة تشبه السفن ، عمها الخراب ، وقد استلقت مائلة على جوانبها فى قيعان البحيرات والبحار الجافة . .

ثم لاحظ فجأة ، أنه مع طول التجوال ، وعلى كثرة ما شاهد وراقب من ارتفاع الحوامة الخفيض ، فإنه لم يركائنا واحدا غير الذى يجلس بجواره ، متحجرا فى ردائه الغريب ، كأنه ميت بالرغم من نضارة يديه وطراوتهما . بل لم يلمح شيئا تشمله الحركة ، سوى الحوامة التى كانت تنساب بدورها بلا صوت يصدر عن آلاتها . .

وكأن الكائن قرأ أفكار الرجل ، فقد هبط بالحوامة ، وتوقف لدى فتحة واطئة ، فى أعماق هرم استقامت جوانبه المائلة ، المصنوعة من خلايا معدنية تمتص أشعة الضوء . . وبدت فتحة الهرم مفضية ، فيما يبدو ، إلى مكان ما ، بأسفل السطح المغطى خارجيا بنوع فقير من عشب بنفسجى متيبس . .

بعد أن طرق الاثنان عديدا من الممرات والسراديب ، التى بدا الإهمال ضاربا بين جوانبها ، بما يغطيها من أتربة ، ويتناثر بين أرجائها من أثاث وأجهزة مهجورة غريبة التركيب . توقف الكائن قبالة حائط به باب أملس ، مغلق ، لا يتضح عليه أى مقبض لفتحه . .

لكن الباب انفتح على مصراعيه دون لمسة من أحد ! . . وانكشفت رحبة

فسيحة الأرجاء ، بدت وكأنها مجموعة قاعات متداخلة . تغطى جدرانها صفحة مسامية لامتصاص الصوت . ويغطى أرضيتها مشمع لامع كالبللور . . .

وفى صدر الرحبة . ظهر نموذج غاية فى الروعة الهندسية . لجهاز ضخم ذى طابقين . عرف فيه القائد – بخبراته الأرضية وطول مرانه – حاسبا إلكترونيا ممتاز التكوين . يفوق النماذج الأرضية جهدا ومقدرة . . وقبالة الحاسب المضاء بوسائل خفية حانية . لمح القائد عدداً من الكائنات تلبس أردية فيروزية . يشوب أطرافها سواد لدى اليدين والقدمين . .

كما أحس القائد ارتفاعا فى حرارة جو القاعة . .

وقبل أن يجد فسحة من الوقت تتيح له أن ينعم النظر فى تفاصيل وملامح الكائنات المنهمكة فى عملها ، حول الحاسب . بادر الكائن الأول – الذى قاده إلى المكان – بمسلك شاذ . . فعلى بعد أقدام من لوحة مفاتيح تشغيل الحاسب المتجاورة فى انسجام ، توقف الكائن . . ضم ساقيه . واستقام ببدنه القصير . . وفى بطء ، بدأ فى خلع ردائه الشبيه بفراء الدب ، وسترة أخرى ورقية – أو من مادة تشبه الورق – كانت تحت الرداء . .

وخلع القناع . . وخلع كذلك ثوبا داخليا ، كما نزع عنه جهازا ضاغطا . كان يلفه حول وسطه . .

وبقى فى النهاية عارياً . . !

الكائن الذى يشبه المخلوقات البشرية . والذى يعيش على سطح الكوكب الأزرق . سادس الكواكب بعدا عن النجم . . بقى عاريا بكل تكوينه . وكل تفاصيله الظاهرية الملائمة لظروف كوكبه وحكمة خلقه . .

وتفرس القائد فى المخلوق الواقف قبالته . . كان رأسه يمثل ثلث حجمه

تقريباً ، ضخما ، مكورا ، أصلع ، بارزة قليلا عظام الجبهة فيه . . أما الوجه ، فكانت ملامحه وقسماته لوجه طفل لم يتعد عامه العاشر ، وصغيرا للغاية بالنسبة لمساحة الرأس . . كأنه السرة فى نهاية ثمرة برتقال !

وبدت العينان واسعتين ، والأذنان مجرد فجوتين . . .

وكان كل من العنق والذراعين والساقين قصارا مكتنزين . . لكنها متناسقة . . وإن شذ عن التكوين القدمان والكفان لضآلتهما بشكل واضح . . وأما لون البشرة ولون البدن بأكمله فكان يميل إلى الصفار تتضح من خلال لحمه عروق خضراء متشعبة خفيفة فى الاطراف كثيفة عند الصدر . . .

وحين لحظ الكائن أن تفحص عينى القائد لجسده قد هبطت حدته تناول رداء فيروزيا لبسه على مهل . . ثم أشار إلى مجرى من مادة متحركة متلألئة يحده ما يشبه الإطار بالطابق الأسفل من الحاسب بعرض نصف متر وطول يصل إلى نحو خمسة أمتار . . وبدأ يدير مفاتيح معينة ويضغط أزراراً ذات رءوس متباينة الأحجام . . .

عندئذ خرج فحيح من مكبر صوت الحاسب لم يتبين القائد فحواه لوجود القناع على رأسه . . لكنه رأى جريان بعض الأشكال الهندسية المفككة بداخل الإطار فى اتجاه من اليمين إلى اليسار . .

هز القائد رأسه علامة الحيرة وعدم الفهم . . .

أعاد الكائن ضبط مفاتيحه . . وظهرت أشكال هندسية مغايرة . . أيضاً غير مترابطة . . تتجه يسارا باستمرار . . وهز القائد رأسه كذلك بالنفى . . .

وللمرة الثالثة ضبط الكائن مفاتيح الحاسب . . وقبل أن يكتمل وضوح الفحيح . . وبينما الأشكال الهندسية الجديدة لم تكد تأخذ طريق سيرتها . . ولم تبرز

معانيها وتتبلور . . إذ بالقائد يرفع ذراعيه هذه المرة معاً علامة الإيجاب . . والإعجاب . . .

وأسرع الكائن فى نشاط زائد يعزف شيئاً مغايراً . . وتكونت أشكال فيها بهجة . . حروف مقروءة . . . «أنت . . تتكلم . . العربية . . » .

أحنى القائد رأسه : نعم . . .

استمرت الكلمات تترى مقطعة مجزأة . . .

« نطلب . . منك . . أولا . . أن . . تنزع . عنك . قناعك . . »

بانت الحيرة فى حركات القائد . . كيف ينزع قناعه وسط جو لا يعرف مكوناته . . .

وحينئذ ، ظهرت كلمات : «لا . . تخف . . جو . . المكان . . مكيف . . فيه . . ما . . تسمونه . . أكسيجين . . فنحن نتنفسه . . كذلك . . » !

خلع الرجل قناعه ، فاختفت الكلمات المتباعدة . . وبقى الفحيح : مسموعا الآن . . يفسر بصعوبة كلمات عربية فصيحة ، ممطوطة المخارج :

«نحن . . نعرف . . الكثير . . عن . . كوكب . . الأرض . . من . . أى . . بلد . . أنت . . ؟ »

– أنا مصرى . . بلدى جمهورية مصر العربية . . .

«لقد . . انتظرنا . . طويلا . . قدوم . . أحد . . من كوكبكم . . حتى أتيتم . . أنتم . . أخيرا . . » !

– إنها أول رحلة كونية مصرية لهذا الطرف من مجرتنا : «سكة التبانة» . .

«هذا . . رائع . . فشعبنا . . يرصد . . كوكب . . الأرض . . منذ . . آلاف . . السنين . . بآلات . . رصد . . عظيمة . . ويعرف . . الكثير . .

عنكم . . وقد . . تم . . لنا . . حل . رموز . . ثلاث . . لغات . . تتحدثونها . . هى . . اليونانية . . الفارسية . . العربية . . » !

بادر القائد بسؤال : « هل أنتم كائنات مثلنا ؟ . . وهل تشبهون البشر من أهل الأرض ؟ »

« إننا . . مثلكم . . مع اختلافات . . يسيرة . . فى أطوال . . قاماتنا . . بالنسبة . . لقاماتكم . . وفى أجهزة . . أبداننا . . الداخلية . . فقد خلت . . من الزائدة . . الدودية . . المرارة . . الطحال . . المرىء . . اللوزتين . . الأسنان . . كما ضمرت . . المعدة . . لأن . . الطهو لدينا . . معقد . . ومعظمه . . لبن . . ألبان . . سوائل . . » !

– وهل بينكم ذكور وإناث ؟

« الذكور . . هم الغالبية . . أما الإناث . . فقد تبقت . . منهن . . واحدة . . » !

– أين ؟

« إنها . . هنا . . بيننا . . » !

– . . . . . . ؟

« أنا . . » !

تمتم القائد فى ذهول : « أنت ؟ ! » .

وجاء التفسير سريعا . . « ضمرت . . بمرور . . الزمن . . أثداء . . الإناث . . لدينا . . كما أن . . رءوسنا . . رجالاً . . ونساء . . صلعاء . بفعل . . نقص . . الأكسيجين . . بكوكبنا . . » !

وفضل القائد أن يغير الموضوع : « لماذا لم أر سواكم على امتداد طوافنا بمدنكم

وقنواتكم وطرقاتكم ؟ »

« لذلك . . قصة . . طويلة . . محزنة . . »

* * *

وعرف قائد الرواد المصريين تفاصيل المأساة التى عاناها شعب الكوكب الأزرق الشجاع على امتداد آلاف السنين . .

راح الحاسب يحدّثه ، وأصابع الكائن لا تكاد تتركه : لقد امتد عمر الحضارة على ثرى كوكبهم إلى ما يعود لمليون عام سابقة . . وقبل أن تتنفس حضارة إنسان الأرض أولى أنفاسها . . ثم ، منذ ما يزيد على عشرة آلاف عام ، بدأ الحدث المخيف فى الوضوح . .

إن النجم — أو الشمس — الذى يستمدون منه الضياء والدفء على كوكبهم ، نجم كبير يتركب من عنصرى الكربون والأكسيجين الثقيين ، وتنتج طاقته الإشعاعية عن تحولات ذرية للعنصرين ، مثل بقية النجوم ، طبقا لقاعدة تكافؤ المادة والطاقة . . ومع أن كميات الطاقة — التى تتضمنها تحوّلات النجم الذرية — أضخم بكثير من مقادير الاحتراق بباطنه ، فإنه بدا فى الانكماش والبرودة ببطء ، يوما وراء يوم . . .

ومن هنا قل ضياؤه . . وقلت الأشعة الحرارية التى يبعث بها إلى كواكبه الأربعة عشر ، ومنها كوكبهم الأزرق . . وبالتالى قل الدفء ، وازدادت البرودة . . ومع ازدياد معدلات البرودة عاما وراء عام ، أخذ الجفاف يدب فى سطح الكوكب . . وتسربت أبخرة مياهه بوفرة إلى جوه ، متأثرة كذلك بضعف الجاذبية وقلة كثافة الجو ، مثلما حدث على سطح الكوكب المسمى بالمريخ من المجموعة الشمسية . لكن أهل الكوكب الأزرق ، مزودين ببطاقات — عضوية وفكرية —

لا تعرف الكلل ، بنوا القنوات الكبرى من خط استواء كوكبهم إلى قطبيه . . وبدا وكأن مشكلة استمرار الحياة قد حُلّت بجلب الماء – عند إذابته بالقطبين – إلى المنطقة الاستوائية ، حيث تتركز المدن ، ومن ثم يتركز الأحياء . .

لكن ظهرت مشكلتان جديدتان . . أولاهما ازدياد تسرب الأكسيجين ، بتحلل بخار الماء المتسرب – أولا بأول – إلى عنصريه : الأيدروجين والأكسيجين . . فأخذ الأول يتطاير إلى الفضاء لقلة كثافته ، فى حين يتساقط الثانى إلى السطح مؤكسداً القشرة الخارجية للكوكب ، ومهلكا الكثيرين من أبنائه بمرض الشيخوخة المبكرة ! . .

«أتعرف . . كم . . كان . . متوسط . . عمر . . الفرد . . منا ؟»

– كم ؟

«اربعمائة . . عام . . »

– باه . . وكم أصبح متوسطه الآن ؟

«أصبح . . أخيراً . . مائتى . . عام . . وربما . . أقل . . » !

– تعنين أن عمرك يزيد عن الثلاثين ؟

«أجل . . بمائة . . عام . . » !

وكانت المشكلة الثانية أن ازدياد معدلات برودة الكوكب أدت إلى هلاك كل الثروة الحيوانية ، من طيور وحيوانات وأسماك . . وبالنسبة للنبات ، فلما كانت غالبيته ليست بذورية وإنما من الأنواع الوعائية ، التى تحتوى على كميات كبيرة من الماء ، فقد تسببت البرودة الشديدة التى تفوق احتمالاتها ، فى تجمد النبات . . كما أثّر تزايد البرد والصقيع على الأحياء أنفسهم بالرغم من تقدم وسائل التدفئة الصناعية عندهم . . فتساقط الآلاف ، خاصة الصغار ، صرعى البرد والاختناق

من قلة الاكسيجين . . .

– تعنين أن أحدا لم يتبق سواك وهؤلاء الثمانية الآخرين . . على سطح كوكبكم ؟

«لا . . هنا . . مائه . . وأربعين . . غيرنا . . نصفهم . . من الإناث . . » !

– بالمدن الباطنية ؟

«هذه . . المدن . . كلها . . خاوية . . » !

– فى هذه الحالة هم فوق السطح . . بقاعات مجاورة ، أو فى مستعمرات قريبة ؟

«إنهم . . ليسوا . . أحياء . . بالمرة . . » !

– ما هذا الخلط ؟ . . لقد ذكرت قبلا أنهم ليسوا أمواتا ، وهأنتذى تنفين ذلك الآن . .

لم يبتسم وجه المرأة الطفولى لارتباك الرجل ، فمنذ أعوام لم يعرف الابتسام . . لكنها قالت فى اقتضاب عن طريق الحاسب . . .

«اتبعنى . . سوف . . تراهم . . بنفسك . . » !

* * *

وقادته عبر ممر انتهى بباب ، انفرج بدوره بمجرد وصولها قبالته . . وبالداخل بانت قاعة مهولة ، يفصلها عن المدخل الوحيد – الذى أقبلا منه – جدارا بلوريا . . لا ، بل ربما أكثر من جدار . . ووراءه كانت ترقد عشرات الأجساد ، فيما يشبه الثبات الكامل ، وقد غطتها غلالات رقيقة ، فى حين كانت رءوسها الصلعاء تلمع فوق أسرّة متراصة متوازية فى نظام أخاذ !

وحين أغلقت القاعة ، وعادا ثانية إلى حيث الحاسب الناطق ، عرف القائد

المصرى أن هؤلاء الراقدين بالقاعة هم الباقون من شعب الكوكب . وأنهم إنما يرقدون فى سبات الجمد بوسيلة علمية مبتكرة ، انتظارا ليوم يُفَكّ فيه جمودهم ليعودوا إلى الحياة ، وإلى التكاثر من جديد . .

« بقى . . شىء . . هام . . »

– ما هو ؟

« لم تسألنى . . عن السبب . . فى إحضارك . . إلى هنا . . واطلاعك . . على . . كل . . الذى . . رأيت . . وسمعت . . » !

– حقا . . لم أعرف بعد ؟

« إن . . مقدمك . . وزملاءك . . إلينا . . هو ما كنا . . ننتظره . . منذ . . أعوام . . فهو . . الأمل . . المتبقى . . أمام . . معنى . . الحياة . . الكبيرة . . على ظهر . . كوكبنا . . » !

– لكن . . لماذا لم تتصلوا بنا لاسلكيا من قبل . وأنا أرى أجهزة الإرسال لديكم تفوق مثيلاتها لدينا ؟

« معظم . . مالدينا . . من أجهزة . . مخرَّب . . بال . . كما أننا . . نحن المتبقين . . أحياء . . لا دراية . . لنا . . بتشغيلها . . ولا بكيفية . . الاستفادة منها . . ! » .

انتم . . بالفعل . . محاصرون !

قالها القائد المصرى ، أسمر القسمات ، وهو ينقل عينين زرقاوين بين الوجوه الصغيرة ، الرقيقة ، المتعلقة به فى رجاء . . ثم تناول قناعه . . احتضنه برهة ، كأن عقله يفكر عميقا ، وقال :

– أعدكم بأن أنقل لهم . . هناك ، على ظهر الأرض . . تفاصيل محنتكم وآلامكم . .

تقدمت المرأة من أهل الكوكب الأزرق خطوتين قصيرتين . . دفعت بين أصابع قبضته الطليقة علبة معدنية خفيفة . وعادت تدير مفاتيح الحاسب . .

« بالعلبة . . عشرة . . أشرطة . . تسجيل . . بها كل . . ماتريدون . . معرفته . . عنا . . عن محنتنا . . وبها . . أيضا . . خطة . . هجرة . . جماعية . . لو سمحتم . . إلى كوكبكم . . أوفلتبحثوا . . عن حل . . آخر . . يناسبكم . . وينقذنا . . لاتنس . . العلبة . . إنها . . التأكيد . . العلمى . . لما ستقول . . لهم . . ! » .

وأراح القائد قناعه على رأسه . وأحكم تثبيته . . وبينما احتضن علبة الأشرطة تحت ذراعه اليسرى . مد عينيه . . بسط يده إلى أعلى . ثم مدها أماما . . وقبضت المرأة على أصابعه بأصابع قصيرة دافئة . وليست باردة كما كانت قبلا . . تشبثت به طويلا . . طوقته بنظراتها . . كان صدرها الشبيه بصدور الرجال . يعلو ويهبط فى عصبية . .

انحدرت دمعتان من عينيها الواسعتين على خديها : . وابتسم فمها الدقيق الخالى من الأسنان لأول مرة . .

وابتسم القائد أيضا من وراء القناع . . فتلاقت ابتسامتا أخوّة نادرة . .

بعد دهر من الثوانى الجياشة . استدار القائد فى تثاقل ، وغادر القاعة تشيعه همهماتهم ، التى تعالت لأول مرة فيما بينهم ، والتى تشبه زقزقة الببغاوات وصيحاتها . .

* * *

عند ضحى اليوم التالى ، أغلقت المركبة بابها على روادها الستة . . وابتلعت « جنزيرها » وسيقانها العنكبوتية إذ اجتذبتها فى رشاقة – عن طريق توجيه

إلكترونى – ذراع فولاذية أودعتها قلب السفينة الكونية . . وعقب انتهاء العد التنازلى ، من ٥٠ إلى صفر ، أطلقت صاروخها العكسى . لتأخذ السفينة الانسيابية فى الإقلاع عن السطح الصخرى الأزرق ، فى سرعة يعتريها ارتجاج طفيف . . بادئة خمسة أعوام جديدة من السجن الاختيارى فى طريق العودة إلى كوكب الأرض . .

وبعيدا عن مكان انطلاق السفينة . . انتصب لدى فوهة بركان خامد ، جسد قصير يلفه فراء كفراء الدب . .

وكلما ارتفعت المركبة ، كان فراء الدب يتضاءل . . ويصغر ، ويصغر . . حتى اختفى فى النهاية . . !

## تلال الصمت

الطين العالق من أعلى لأسفل ، أومن أسفل لأعلى ، وعلى امتداد الرؤية إلى حدود تقل ولاتزيد ، بدا شفافا رقيقاً لدى الغرب ، معتما كريها فيما وراء الحافة الشرقية . . الطين ذراته أردوازية ، أو هي مزرقة ، وقد تميل إلى الحمرة في الأعالى . . والطين ذراته هشة . . هباء دقيق منثور ، لزج . . له رائحة صدأ المعادن . وهو في تعلقه وانتشاره ، يحيل المنطقة – بامتداد الأديم الأسود – إلى بحيرة غامضة من الظلمة ، والروائح النفاذة . .

وفوق الطين ، أولدى أبعاده الشمالية القصية ، القرص مثبت . . شهور ستة يعتلى التلال السامقة كالأشباح ، وشهور ستة تطويه الظلمة . . وفى هذه اللحظة ، القرص فى منتصف الشهور الست الأول . . كامل الاستدارة ، محمرا ، مسودًا ، كنقطة الدم المتجلطة . . تخنقه حلقة فضية من الضياء اللامع المتذبذب ، اتضحت

كأنها الشيء الوحيد الذى يشذّ عن خطوط المنظر وتراكيب ألوانه المحتضرة . .

على أن الأديم الأسود لم يكن مستويا بالمرة . . الأطراف الغربية – عبر نفاذية الطين – تشكّل هضبة واطئة ، تملؤها الثقوب والفتحات الغائرة . . وأما الأطراف الشرقية ، فهى هابطة منزلقة ، تقود إلى الجرف البعيد ، المطل رأسا – وبارتفاعه الشاهق – على اللجة الفائرة المتصارعة ، التى تتصاعد منها الفقاعات والأبخرة على الدوام . . ولايتبقى أقرب إلى الاستواء خلاف السهل المحدود الممتد جنوبا ، حيث أعواد الفطر النحاسى تتشبث بالتربة فى وهن ، وحيث السياج الصخرى يحجز أعدادا هزيلة من أجسام قشرية دودية ، قبعت فى قاع المستنقع ، الذى أوشكت مياهه الآسنة على النضوب . .

وزيادة على ذلك كله ، أطبقت على المنطقة ، وأنشبت فيها مخالبها ، حرارة لافحة رطبة . . وصمت عريض ، عريض . .

بغتة ، تحرك ظل بداخل واحدة من الفتحات الغائرة ، الواطئة السقوف ، بالهضبة . . من أعماق المغارة انفلت جزء من ظلمتها . . تقدم وئيدا . . هبط منحدرا . . ودونما صوت ، وكما تستلق الظلال فى ليونة ويسر ، خطا كائن مبهم التفاصيل ، يخترق رحبة من الأرض الفضاء ، حتى توقف فى منتصفها . . وحملت ذرات الطين صفيرا مشروخ الإيقاع ، راح الكائن ينفثه من آلة يحملها . . وعلى الأثر ، لفظت بقية الفتحات بالهضبة من الأمام ، والجوانب ومن حفرات بأسفلها عشرات الكائنات . . متباينة الملامح ، مغرقة فى تنافر ثنيات أجسامها . . ومن بين الجموع المتزاحمة ، ودون أن يتضح من معالمها سوى كتل عارية مقذية من الدهن الرجراج ، شمعى البياض ، برز أطولها . . وكان يقبض على عظمة آدمية متفحمة . . !

أفسحوا له شبه دائرة هو مركزها . . راقبوه فى توتر . فى حين أخذ يدور على نفسه . ويدير بأعلاه كرة جلدية ملساء قد خلت من الشعر تماما . . وزاد توجسهم . حينما تبينوا محجريه الكليلين وهما يبرزان بالكاد . من تجويفى الكرة الغائرين . يحاول بهما تفحص الكتل المماثلة المحيطة به واحدة وراء واحدة . .

وعلى غير انتظار قذف الكائن عظمته إلى أعلى . ثم عاد فالتقطها . ليلوح بها فى عصبية تجاه الشرق ، وقد انفلتت من كرته صيحة حيوانية . حوت الكثير من قعقعة الصخر وتكسّر أحجاره . . وبالرغم من أن ذرات الطين قد عجزت عن حمل أصداء الصيحة ، وربما عمدت إلى كتمها . . فإن الكائنات لم تكن فى حاجة لاستيضاح معالم النغمة المنفعلة . بعد أن فهمت معزاها . . وعلى الأثر تعالت من كراتهم همهمات تلقائية . خافتة ، ممطوطة . . فى حين استمر توافد المزيد منهم . ينحدرون من أعماق جحورهم . يقبلون كالسكارى . كالمنومين . فى بطء وإعياء . . فإذا مالحقوا بالجمع انضموا إليه . واستداروا مثل الواقفين يستقبلون الشرق . وقد تجاوروا . وتلامسوا ، وطأطأوا كراتهم الجلدية الملساء فى وداعة واستكانة . . وهمهماتهم تنساب على نفس الوتيرة خافتة ، ممطوطة ، كلحن مبهم يفيض باللوعة ، والشجن . . ويتلكأ إلى حد العجز ووشوك التوقف . .

« هم . هم . هم . هاههم . . ترى . . رى . رى . هاههم . . هم » ! .

وخلال فترة من الدهر بدت قاسية فى امتداد جوانبها برغم قصرها . ومريعة فى وقعها برغم أنها تكاد تخلو من حركة ملموسة فعالة . . اتضح أخيرا أن جموع الكائنات — وقد قاربت أعدادها ألفا وقوفا — إنما يبدءون بالفعل مسيرة مجهولة . نحو الاتجاه الذى تعمدوا ألا يحيدوا عنه منذ البداية . .

« هم . . هم . . هم . . هاههم . . هم » !

وكان يتقدمهم أطولهم ، حامل العظمة الآدمية المتفحمة . . وتفر من أمامهم ، أوتصطدم بأسطح دهونهم ، ذرات الطين اللزجة الاردوازية .

« هم . . . هم . . هم . . هاهم . . هم ! » .

لكن صرختين متعاقبتين ، تمتلئان بالفتوة والتوثب ، أوقفتا الهمهمات ، أخرستاها . .

– لا . . !

– لا . . !

وتنفجر « اللا » هذه المرة ثاقبة ، مجبرة الذرات الهشة على رفعها ! والاندفاع بها إلى مالانهاية . . ويعدو كائنان أبيضان ، لم يدر أحد من أين برزا ، يريدان اللحاق بالجمع الذى كف عن التقدم . . ويستدير حامل العظمة فى غضب : « الأحمقان ! » . . ويستدير آخرون فى بلادة ويهتفون : « كيف جرؤا ؟ » .

لكن الكائنين وقد اتضحا خلال عريهما الكامل ، ذكرا وأنثى ، لم يكفا عن العدو ، متجاهلين صيحات الوعيد التى تقاذفتها الأركان . . بدا أن كلا من الذكر والأنثى كانا يقصدان ، فى إصرار ، كائنا بالذات من بين الجموع . . وبالفعل فقد توقفا لدى المنتصف ، قبالة القصير المكتنز ، الذى تتوه نظراته وتشمل الرجفة قائمتيه . .

– لا . . مستحيل . . لن نتركك لهم !

لفظتها الأنثى فى وحشية . .

– ليأخذنى أنا . . بدلا منك !

فجرها الذكر ، وهو يجذب القصير ، محاولا زحزحته عن مكانه . .

لكن ذرات الطين – وقد ظُنَّ لدقائق أنها غُلبت على أمرها – تنتفض ،

تتصلب ، تتحول جدارا يقوى على دفع الأصداء .. ليعيد جو الصمت المقبض سمة ماوصل إليه الحال على التلال . . وتروح الذرات القاسيات وقد فرضت قانونها من جديد ، تستعرض المشهد المضطرب قبالتها . .

متحديان لكائنات الذهن شمعية البياض ، وقف الذكر أكثر تفصيلا فى قسماته وتكوينات قامته الصلبة ، واستقامت الأنثى أوضح ليونة فى مادتها وأفصح بروزا وانثناء فى أطرافها . . والأهم ، أن الاثنين أوتيا بعض شعيرات حقيقية . نبتت بجوانب رأسيهما – لا كرتيهما – وحول أعينهما لا تجاويفها . .

كان هذا مايدور فى الساحة وعلى البعد كانت الجحور والفتحات – بطول التلال – تأوى المزيد من الكائنات . . ذكورا وإناثا ، بل أغلبهم إناث . . يتلصصون من قلب الظلمة ، على مايدور من أحداث بلغت حدا مرعبا فى غرابتها وإعجازها ، مما لم تعه ذاكرة لسنوات مضت . . أو هى تهرب منه وتأباه ، كشرٍ مستطير يجذبهم ويربطهم بما هو أفظع وأشد هولاً . . تحرك القصير ، وقد تحرك شىء فى كرته الجلدية الملساء فأوقد شرارة . . التفت إلى الأطول ، حامل العظمة . . رفع له طرفاه على جانبيه مرتين ، كأنه يطلب منه الإذن فيا يبدو . . وأحنى حامل العظمة كرته يوافق مكرها . .

عندئذ تراقص بدن القصير ، تشنج ، ثم انكفأ يحتضن الذكر والأنثى . . اندفع يقودهما مخترقا ذرات الطين ، إلى ماوراء مرتفع من شقف الفخار على شكل هرم . . وإلى جوار المرتفع ، توقف ثلاثتهم والصمت كالعادة رابعهم . . ولوى القصير الفتحة البادية فى كرته ، وأنفاسه تتلاحق : « استمعا إلى . . الذى نوشك على فعله ، هو قَدَر . . محتوم . . » .

أطلقت الأنثى سراح زفرة حبيسة : « أنت لست طاعنا . . فلمَ يأخذونك معهم ؟ » .

– القانون حدد سن الفرد منا ، ممن عليهم الدور . . ابتداء من ٤٠٠ دورة قمرية . .

دمدم الذكر : « عن أى قانون تتحدث ؟ »

ترك القصير جزءا من دهنه يتكئ على بروز فى مرتفع الفخار ، وقال :

– أقصد « قانون البقاء » ، الذى أنحدر عن « قوانين الفاجعة العالمية الكبرى » . . فاجعتنا !

مد الذكر رأسه مستنكرا : « ماهذا . . وماذاك ؟ »

غلف الأسى صوت القصير ، فبدا مضغوطا مخنوقا .

– القصة بعيدة ، تفاصيلها موغلة فى القدم . . إنه تاريخ قومنا نحن . . كلنا ، فقد تواترت الأحاديث عن آبائنا وأجدادنا . . إنهم ينحدرون عن قوم ذوى جاه وحضارة عريقة ، كانت مثالا للتقدم والرقى . . عن طريق سيطرة ما كان ذا سطوة وبأس رهيبين وعرف . . بالعلم ومنجزاته . .

انبهرت الأنثى : « أكانوا على شاكلتنا ؟ »

أعترض القصير : « لا ، لا . . بل أرقى منا ، وأكثر تحضرا بدرجة يعجز تصورك المحدود عن إدراكها . . نحن بالنسبة إليهم مثل . . مثل القشريات فى المستنقع بالنسبة إلينا ! »

تساءل الذكر : « أين ذهبوا . . كيف ذهبت حضارتهم ؟ »

– آه . . هنا تبرز الفاجعة الكبرى وقوانينها التى طوت كل شىء ، فقد قادهم العلم إلى اكتشاف ماأطلقوا عليه . . « قنبلة ذرية » ! نوع من الهول يسحق كل الموجودات ، يحيل الشجر والجبل والنهر إلى فناء . . وهكذا ، سرعان ماتغلبت نوازعهم الشريرة ، فأفنى بعضهم بعضا !

بان الذبول فى نظرات الذكر : « لكنى لم أعلم بوجود أثر للحضارة ، أوالحضارات التى تذكر ، فى نواحى تلالنا ؟ »

– وهل نواحى التلال ، بل جزيرتنا برمتها ، مما يقاس إلى جانب الأراضى الممتدة عليها مدنهم وبلدانهم . . وحتى تلتحم بأطراف الكون الفسيح . .

أطرقت الأنثى ، وقد تشتت فهمها لأقصاه : « أفكل الذى تذكر قد تلاشى . . حقيقة ؟ »

زاد تلاحق أنفاس القصير : « من يدرى ؟ . . لقد تواتر إلينا أن الخراب قد عم وساد كافة البقاع ، حيث كانوا ينتشرون . . ومانحن إلا من نبت الفئة التى قيل إنها لجأت على متن ما كان يعرف بالطائرة – أو النفاثة منذ ألف عام مضت . . أجل ، خلال أيام الحرب الذرية . . ثلاث من هذه السفن أمكنها اعتلاء الجو . لتفر من الانفجارات المخيفة التى غطت أطراف العالم . . ولم ينج منها غير السفينة المصرية . . قادها الحظ إلى هنا ، وهبطت بركابها الهلعين من الجو ، كما تهبط الشهب . . ليستقروا – هربا من الجحيم – على ثرى جزيرتنا ، التى كانت تسمى قديما « الأرض الخضراء » مجازا . . فقد امتد موقعها لدى ما كان فى الأزمنة الغابرة يشار إليه « بدائرة القطب الشمالى » .

– ما القطب ؟

– أظن أنه كان امتداداً لمساحة مترامية . . من الجليد . .

– وما الجليد ؟

– أعرف أنها كلمات غريبة على أسماعكم . . سوف يلقنكم حكماؤكم معانى الكثير منها قريباً . . وعلى أى الحالات ، فالجليد مياه تجمدت بفعل البرودة الشديدة . . فهذا ماقالوه لنا وإن كنت أنا نفسى لاأعرف كيف يتم ذلك !

– بل سمعنا عن مرئيات ، أوهو نوع من الإحساس ، يدل على البرد . . لكننا لم نجربه .

إن تجاربنا . . حياتنا ، وعيشنا المستديم على التلال ، لم نع من خلاله غير موجات الحرارة المميتة . . لم نعرف البرد ، وإنما خبرنا جو السخونة اللافح حولنا ، يطوقنا من جميع الجهات !

قالها القصير ، ثم قذف بمساحة الدهن التى تكوّنه بعيدا عن شقف الفخار ، واستقام . . لوح بطرفه الأيمن ، وقد أضىء جانب من كرته . . وتابعت نبراته الخشنة ترددها .

– الحرارة . . الحرارة ! إن الكون يشتعل ، والموجودات تلتهب . . الحرارة فى كل بقعة وكل ركن . . إنها تشوينا . . موجاتها الغضبى تلهب مزروعاتنا ، غذائنا ، مصدر بقائنا . . والأهم من هذا ، أن الحرارة حين تبلغ ذروتها خلال عشرين أوأكثر قليلا من الأعوام ، تقوم بإبادة مايغفل الرماد الذرى المشع عن إبادته من تلك المزروعات ، ومما نملك من حيوانات . . تفنيها تماما ، تمحو كافة آثارها . .

روعت الأنثى . . رفعت ذراعا تمسك رأسها : «فظيع . . فظيع !» فى حين بسط الذكر كفه : «هل حدث ذلك من قبل ؟» .

تعالت نغمة جافة : «بالطبع ، ولأكثر من مرة . . وإن كان عمرك القصير لم يلم بإحداها . . إنها لدورة هلاك مرعبة يابنى ، وتقابلها دورة أخرى لايحتمل قومنا وطأتها !

قاطعه الذكر : عن ماذا تتكلم ؟»

– الدورة الثانية هى تزايد مواليدنا . . وحين يصل الأطفال عندنا حد التخمة ، حد التشبّع ، حد الزيادة المفرطة . . ينطلق مارد الحرارة فيحرق كافة أقواتنا ، فما الذى فى مقدورنا أن نفعله ؟

لمعت عينا الأنثى ، وتحركت شفتاها تستعجل الرد . . لكن الذكر أسرع ينطق في نبرات متشنجة .

– الذى ستقومون بفعله اليوم ؟ . . المذبحة ؟

– هى المذبحة بعينها . . وكما فعل حيوان « اللامنج » منذ أزمنة بعيدة نائية . على ثرى أرض مجهولة !

قطبت الأنثى جبينها متحيرة : « وماذا كان يفعل . . اللامنج هذا ؟ »

– جاء فى وصفها أنها كانت حيوانات ذات ذيول قصيرة وفراء سمراء . وكانت تشبه ما كان يعرف بالفأر . . ياه ، نسيت . . أنتما لاتعرفان الفئران ! المهم أنها كانت تعيش فوق جبال ، ترتفع عن سطح البحر ارتفاعا كبيرا ، يماثل ارتفاع جرفنا المطل على بحر الغليان . . أما غذاؤها فكان الحشائش وجذور الأشجار ، كما أنها كانت حيوانات سريعة التوالد والتكاثر . . لكن الخضرة فى منطقتها طالما تعرضت للجفاف ، وخلال دورة من الأعوام ، قد تصل إلى عشر . . كانت وطأة الجفاف تشتد ، ويشعر « اللامنج » بأن بيئته أصبحت جدباء تماما . فيدب الخوف فى أعماقه . . وماهى إلا أيام معدودات ، حتى تهب جماعات « اللامنج » دفعة واحدة ، تهجر مساكنها ، تأخذ اتجاها معينا واحدا . . وأسرة تلو أسرة وقبيلة مندمجة فى قبيلة ، يندفع زحف الحيوان الصغير ، لايقف فى سبيله عائق ، عبر طريق رحلته الطويلة القاسية . . التى تنتهى عند شاطئ البحر ، حيث . حيث . . أقول حيث يلقى بنفسه منتحرا فى أحضان الأمواج المتلاطمة . . وواحدا فى أعقاب الآخر ، تصبح أعداد « اللامنج » المهولة أثرا بعد عين !

وتوقفت النبرات . . لم يتبق غير هنات اللهاث المتقطع ، وفحيح رئتين واهنتين يتردد مكتوما ، ثقيلا ، وكأن حمل جبل أصم يعلوه . .

لكن الأنثى صرخت : «إنها مذبحة بشعة . . قذرة ! »

وهتف الذكر محذرا : «بل قولي استسلام أحمق » .

– هل لديكما حل آخر؟

شيع الذكر نظرة صارمة : «أنتم قوم عاجزون ، صاغرون . . حتما الحل موجود . . بالتأكيد لابد أن يوجد . . أن يخلق . . ! » .

وأخذت الأنثى تولول : «لا تذهب معهم يا أبتاه ! » .

والذكر يردد فى إصرار : « العيب أن نهمل استخدام عقولنا . . وأنتم قد نبذتم الفكر كلية ! »

– أبى . . اتركهم ولاتتبعهم !

– منذ ماتسمونه بالحرب الذرية ، أوموجة الفناء الكبرى ، وأنتم لاتزالون مذهولين . . صاغرين . . ضائعين !

– أبى . . كيف نعيش بعدك ، بدونك » .

– حتى اللحظة لم يوجد المفكر الجرىء . . بينكم !

– أبى . . رحماك !

– لم ينبعث من وسطكم الشخص الذى يمتلك مقدرة التغلب على ضعفه ، على عجزه ، على شلل وقدة الأمل فى غده !

– أبى . . أبى . . !

لكن الكائن القصير كان قد بعد عنهما . . اتخذ مكانه وسط الآخرين ، وتحرك معهم فى اتجاه الشرق . .

هم . . هم . . هم . . هاهم . . هم . . ترى . . رى . . رى . . . هاهم . . هم !

# عندما يفشل العلم مرة !

حين استدعانى صديقى الدكتور « عصمت منيب » على عجل ، في تلك الليلة البعيدة من فبراير الماضى ، ليطلعنى على الكشف العلمى الذى توصل إليه ، لم يكن اسم « ناريم » قد برز أمام مخيلتى على الإطلاق . .

وحين استقللت سيارتى الرمادية ، ورحت أطوى بها طريق « الكورنيش » ، والساعة قد تعدت العاشرة مساء ، مبتعدا من مسكنى – بمنطقة « باكوس » فى رمل الإسكندرية – إلى حيث تستقر « فيلا » صديقى الدكتور ، بمجاورة لاستاد كوم الدكة الرياضى ، لم أكن أتصور ، مهما اشتط خيالى . مدى إثارة المغامرة التى بدأت أنزلق إليها وأنا فى كامل وعيى وتيقظ مشاعرى . .

بمجرد وصولى تركت السيارة أسفل الدرجات الرخامية . . وفى دقيقة كنت أضغط الجرس ، لتنساب موسيقى بالداخل . . وانفتح الباب فى الحال . ثم انغلق

ورائى تلقائيا . . ومن مكان ما ، تعالت همهمة الدكتور الناعسة ترحب بمقدمى عبر سماعة مذياع خفية . .

إنها بعض ألاعيبه التى ألفتها من قبل ، فأى جديد تراه سيفاجئنى به هذه المرة ؟ .

ولم يطل بى التساؤل ، فقد انفرج باب المكتبة عن جسده المترهل ، وصلعته المتوارية تحت ندف من شعر أحمر قصير . . وبدلا من أن يبسط كفه لتحيتى ، وجدته يدفع فى يدى – وقد مددتها برغمى – ورقة مقواة عليها كتابة كثيرة بارزة . . وانفرج شاربه الكثيف عن كلمات أقل نعاسا .

– خذ . . الورقة !

– وماحاجتى إليها ؟

همس ونظراته تشرد فى وهن : « اقرأها . . بينما أجرى تجربة عليك ! »

وداهمنى قلق مبهم : « أى نوع من التجارب تقصد ؟ . . آه ، انتظر ! . . »

لكن الباب ذا الطلاء – فى لون الفضة المزركشة بثنيات تومض بالاخضرار – كان قد ابتلعه .

أمسكت الورقة المقواة وأ‍‍ت فى جلستى على الوسادة المحشوة بالفلين الصناعى . . للوهلة الأولى جذبنى رسم غامض . . به خطوط عريضة سوداء ، تمثل وجها مجعدا كريها لشيخ طاعن السن . يختفى نصفه خلف أنف فى شكل وحجم حبة البطاطس المتوسطة . . على أنى رفعت بصرى من أسفل الورقة – حيث يستقر الرسم – الى اعلاها . . وبدأت محاولة تفهم معانى الكلمات البارزة التى ضمتها الورقة . .

ماهذا ؟ . . أى علاقة بين ما أقرأ رسم الشيخ المسن هادئ القسمات ؟ .

ووجدت الكلمات جافة ، رتيبة ، بل مملة . . نقلت على مايبدو من تقرير سياسى ؛ يتناول تاريخ تجارة الرقيق فى القرن ١٧ . . ولارابط بالمرة بين الأحداث وبين وجه يشيع الحنان عبر عينيه . .

على أنه فيم الاستعجال ؟ . رحت أتابع تراكيب الجمل ، يجذبنى إحساس لذيذ ممتع بانفراج الحروف ورقة انسياب نهاياتها فوق الورقة . . بل تراءت لى أن بروزاتها قد تراخت وانبسطت . وفاحت منها جاذبية آسرة تبعث خدرا فى أوصالى . . ووجدت مشاعرى تتهافت لاختلاس النظر إلى وجه الرجل وقورا مهيبا فى شيبته المبكرة . . أهو وجه أبى الراحل منذ أعوام ؟

ولم أدر بتوقف الكلمات ، إلاحين تعالت أنفاس الدكتور عصمت من ورائى . . وتعالت نغمات صوته تحمل رنة الفوز .

– أأعجبتك ملامح العجوز ؟

تمتمت بلاتردد : إنه الطيبة مجسمة سخية . . إن هالات النور تشع حوله فى جلال وقدسية ! »

– لكنك أبغضته لدى الرؤية الأولى . .

– أفعلت ذلك ؟

– بل وجدته كريها . . يحمل أنفا بطاطسية . . وانها لكذلك !

وأعدت تفحص خطوط الرسم البديع الإيقاع . . قربته وأبعدته فى تمعن أكثر . .

– مهما يكن . . فمن العبث أن ترمينى بكره صاحب الصورة الآن ، وأنا قد أغرمت به حتى أصبحت أراه أثيرا لدى !

ضحك الدكتور . . جلس قبالتي وكرشه الضخم يهتز من فرط الانفعال . . حتى إذا ماكف في النهاية . وقد دمعت عيناه ، راح يفصح لى عن كنه أفعاله الأخيرة موضحا حقيقة كشفه العلمى الغريب . .

« لقد توصل مؤخرا إلى الوسيلة الفعالة لتأجيج عاطفة الحب والهيام . . أوإيقاظها ومن ثم إطلاق سراحها ، فى قلب إنسان ما – إن صح هذا التعبير – عن طريق تنبيه جزء بعينه فى الخلايا تحت « الثلاموس » بمنتصف مخه البشرى . . وبرغم دقة الأجهزة المنفذة وتشابكها وتعدد أجزائها . فقد كان أداؤها بسيطا ، هينا . . حجرة متسعة يملؤها جهاز بث لاسلكى عملاق ، وكتاب أو ورقة ذات أحرف بارزة . . ولاشيء عدا هاتين الأداتين الرئيسيتين . . فإذا ماالتقط الشخص المراد إيقاظ عاطفته الكتاب أوالورقة وبينما يقرأ أحرفها البارزة . . يمكن – عن طريق جهاز البث اللاسلكى – توجيه شحنات موجبة معينة تلتقطها مادة بلورية ماصة تدخل فى تركيب حبر الطباعة . .

« حينئذ تمتص الأحرف الموجات الموجهة ، ثم تقوم بعكسها وإرسالها عبر البصر الواقع عليها ، ليمتصها العصب البصرى . . فيمتصها المخ ، فتتركز فى نهاية المطاف بالمنطقة السباعية ، الواقعة أسفل الجذر العصبى المسمى « الثلاموس » . . حيث تتجمع البؤرات القوية للعاطفة التى تجعلنا نغلى غضبا أونذوب غراما . . ودواما تفرز هذه البؤرات الحامض المعروف بالحامض المنشط لأحاسيس الحب واختصاره : « ح . م . ا . ح . » وهو يؤدى إلى إثارة ومن ثم ترجيح ، جانب الذوبان غراما . . وذلك طالما اقترنت حروف الكتابة بوجه أوبصورة من أحد الكتب أوالأوراق ، لأن عينى الشخص تعودان تبحثان عمن يسقط عليه سعير العواطف التى بدأ اشتعالها . . »

وابتسم الدكتور عصمت منيب وهو يختم كلامه المستفيض . بابتسامة عريضة واضحة المغزى . .

– والآن . ألا تتوق لإجراء التجربة على شخص ما ؟

تلاحقت أفكارى . . غرقت فى لجة المشاعر المتضاربة ، التى أثارها الحديث العجيب . . هذه فرصة وإن بدت شاذة الطابع فقد تلهمنى مادة روائية طريفة . .

وكأن الرجل قد قرأ مايدور برأسي ، فقد ربّت كتفى وعدل ياقة قميصى وهو يستحثنى منتشيا . .

– هيه ! . . أفق ياحسنى . أين عبقريتك الأدبية ياعزيزى ؟

لكنى كنت قد عثرت بالفعل – خلال جزء من الثانية – على الاسم المنشود ، دون أن أبذل جهدا لاستدعائه . . بل لعل الاسم قفز تلقائيا من ذاكرتى إلى لسانى ، أوهو انطلق بغتة من أعماق تلافيف مخى ، حيث كان يكمن دون علمى منذ زمن بعيد . . بعيد ! وكان اسم « ناريم » !

ورحت أستجمع ذاكرتى أكثر . . أين ترانى رأيتها مؤخرا ؟ . ولمعت ملايين الخلايا خلف جبهتى . واستدعيت حدثا . . كان ذلك منذ قرابة أسبوع يسبق مجيئى لفيلا الدكتور عصمت . . وكنت فى طريقى لبيت أختى . وقد غادرت الدار الصحفية أتأبط أحدث رواية مطولة لى . . بيت أختى يقع بمنطقة سيدى بشر على ناصية شارع الألفى ووابور الطحين . . وبالمناسبة فهى تسكن حاليا الجزء المتبقى من بيت العائلة بعد تقسيمه واختصاره عقب وفاة والدى . . وهو البيت الذى شهد طفولتى كذلك . .

هناك وقد حاذيت السور الخشبى الخفيض . المحيط بالحديقة والبيت ، شاهدتها تبرز لدى الناصية . . كنت مقبلا من اتجاه شارع الألفى ، وكانت قادمة

من اتجاه الشارع الآخر . . ولم أعرفها للوهلة الأولى . . وسألت نفسى أليست هى « ناريم » ، ابنة ناظر المدرسة جارنا السابق . . لقد كبرت وامتلأ صدرها ، وتفجر كل جزء فى جسدها بأنوثة طاغية . .

ولم أتذكر اسم أبيها ، وإنما تذكرت اسم خالها « أحمد قاسم » . . وتذكرت أيضا أحداثا قصية ، أيام كانت ناريم طفلة فى العاشرة من عمرها ، ولها ضفيرة ترسلها على ظهرها . . كيف كانت تهوى الغناء بصوت رفيع ، لايخلو من رخامة . . وكيف كانت تجىء إلى منزلنا تقبّل أختى . وتستأذنها لاقتطاف وردة أوقرنفلة ، فإذا ماحصلت على أيهما فإن بهجة الدنيا كانت ترتسم على خديها الصغيرين فيحمران ويضيئان !

ويومها كنت أنا على أعتاب العشرين ، وكنت أحاول أحيانا معاندتها أومغازلتها بأسلوب ساذج ، فأختطف وردتها أو أدس أنفى لأشمها برغمها ، أو أفاجئها بمجموعة من الفل أكون قد أخفيت بداخلها جرادة تخيفها . . لكنها لم تحاول مطلقا مجاراتى ، فهى دوما مثل المياه ، عبثا تحاول القبض عليها ! . . ترى فهل لا تزال – وقد كبرت – المراوغة . البارعة فى الانفلات والهرب . فلا يقوى على محاصرتها أحد ؟ !

أخذت الكتاب البارز الحروف من الدكتور عصمت وكان رواية بوليسية لكاتب أجنبى ، وقد أسفت لعدم تيسر إعداد أحد مؤلفاتى بهذه الطريقة . . وبعد أن أعطيت الدكتور معلوماتى عن موقع منزل ناريم وبُعد المنزل عن فيلته ، تواعدنا على وجوب الاتصال به تليفونيا متى أسلمتها الكتاب . ليبدأ فى تشغيل أجهزته مباشرة .

وقرابة الواحدة بعد الظهر ، بلغت منطقة سيدى بشر . ولما كان منزل أختى

يقع بعيدا عن الشاطئ وكان الوقت يعد مبكرا بالنسبة لقدوم المصيفين إذ لم ينتصف بعد شهر مايو ، فقد وجدت المكان تكسوه حلة الهدوء التى توقعتها . . وبدا شارع الألفى شبه خال . . المارة بالكاد يتناثرون واحدا أواثنين جيئة وذهابا عبره . . ولم تكن أختى قد فرغت من إعداد طعام الغداء فوجدتها فرصة سانحة لأتفرغ دون رقيب لمهمتى اليسيرة المقبلة . .

انتقيت كرسيا من الخيزران ، جلست عليه فى الحديقة والكتاب يقبع على فخذى ، فى حين انطلقت عيناى تجوبان الشارع ، من خلال أغصان الياسمينة العنبرية التى تتسلق السور الخشبى ، وأريج زهرها ينتشر مع هبات النسيم . . واسترخيت قليلا . .

هل هى علاقة قديمة أود الانتقام لسابق فشلى فيها ؟ أو هو ثأر لواقعة مابينى وبين « ناريم » ؟ . . أم أنه تحد انسقت إليه برغمى ، وربما بكامل رغبتى ؟ أوربما هو غرام من طرف واحد من طرفى أنا — أريد أن أحييه وأؤكده لدى الطرف الثانى ؟ . .

لاشىء من ذلك البتة . . بل إننى لا أكاد أعرف عن هذه الفتاة إلا اسمها . .

كل ماهنالك أن الأمر ببساطة لم يكن يعدو فكرة تحمست لتنفيذها . . واسما محددا سطع قبالتى قبل غيره !

على أنى أحسست ضيقا ، وانزعاجا يعترياننى ، وأنا جالس أرقب عودتها من عملها . .

أحسست نوعا مستترا من الذنب يلف كيانى كجبيرة جبس غير مرئية . . ماجريرتها هى ، لأشركها معى فيما أود الإقدام عليه ؟ . . ولو تصادف — والاحتمال مؤكد — وتجاوبت معى . . أحبتنى فعلى أى الصور سيكون سلوكى إزاءها

وقتذاك ؟ ثم ماموقفها ولاأقول موقفى ، لو رآنا أحد فأساء الفهم ؟

وظهرت ناريم عند الناصية . . بقامتها الهيفاء . ومشيتها المنكفئة بعض الشىء للأمام وبالحقيبة البيضاء تهتز وهى تتدلى من ذراعها اليسرى . . وكان يلف بشرتها سمار خمرى رائع . . وبدت جادة الوجه . . جادة القسمات ، جادة الخطو وهى تتقدم حثيثا ، فى ثقة وأنفة وكأنها إلهة تطل على رعيتها من قمة السماء . .

ولا أدرى لم شملنى ذلك الاضطراب الدخيل على ؟ . . لكنى تقدمت من ناريم والكتاب يسبقنى فى عصبية ، وتمتمت بصوت يشبه صوتى وأنا أحتوى وجهها ببصرى لأول مرة عن قرب ، فاكتشف خلوه من مظاهر التجميل المصطنعة . .

– مساء الخير . .

بوغتت فارتجفت . . وبنظرة عجلة شملتنى بها ، بدا أنها عرفتنى . لكنها لم تنبس بحرف . .

تابعت : أمن الممكن أن تقرئى هذه الرواية ؟

– لا . . لا . . متشكره . .

وحينما هممت بقول المزيد . كانت «ناريم» قد اختفت . وبقى الكتاب وأحرف الرواية الأجنبية بين دفتيه تطل على فى سخرية . .

وفشلت محاولتى الأولى . .

أما المحاولة الثانية فلم تكن عفوية . وإنما سبقتها ترتيبات أكثر حبكة وأكثر إصرارا . . وقد تولت القيام بها إحدى صديقات أختى – السيدة سميرة – وتعمل مع أختى فى الإدارة المالية بشركة المنتجات المعدنية ، وهى عانس منطوية تكبرنى بثمانية أعوام أومايزيد ، وكانت كذلك صديقة لناريم . وأما توجيهاتى لهذه السيدة

فلم تزد عن إعطاء الكتاب – ملصقا على جلدته رسم خطى لوجهى – إلى « ناريم » وأن تخبرها بأنه مهدى منى إليها ، فإما قبلته وإما رفضته بغير إلحاح . .

وتقابلت السيدة و« ناريم » فى الموعد المحدد وقد حملت الأولى الكتاب . . تعانقتا فى المبدأ ، ثم تبادلتا كلمات مرحة . . بعدها تأبطت كل منهما ذراع صاحبتها وسارتا فى اتجاه واحد . . فى حين طرت أنا إلى التليفون ، أدير قرصه بأرقام الخط المباشر للفيلا المجاورة لاستاد كوم الدكة . .

وفى أعقاب أربعة أيام حافلة بالترقب وقد قلّ نومى أثناءها ، وعمنى شعور ممضّ بعدم الاستقرار ، بالضياع . أقبلت السيدة سميرة . ولدهشتى وجدتها على خلاف ما تعودنا منها ، ترتدى ثوبا فاقع اللون ، يكشف عن أجزاء من صدرها وذراعيها ومعظم ساقيها . . وفى تدلل ، وهى ترمينى من تحت أهدابها بنظرات أفزعتنى راحت تخبرنى برفض « ناريم » أخذ الكتاب . . وفى سهولة لم تجد حرجا فى اتهامها بالتكبر والغرور . وأضافت بأن الثغر السكندرى لا يخلو من عشرات غيرها . أخف وأجمل وأرشق قواما . . وكنت أقول لنفسى : « لكن أبدا ليس فى تألق شخصية ناريم » !

وحين أدارت السيدة سميرة الحديث فى اتجاه شخصها وقد اكتسى صوتها بارتعاشة سبق أن اختبرت مثيلا لها بادرت بالانسحاب وقد زاد اقتناعى بأنها ولابد قد قرأت هى الكتاب !

وعدت من حيث بدأت . .

وأخذت محاولاتى التالية تفشل الواحدة تلو الأخرى . . أرسلت الكتاب مع أكثر من رسول ، فلم تقرأه « ناريم » وقرأه الذين حملوه . . ولم تستجب عواطفها لى . . لم تتجه قط نحوى ، وانما حاصرتنى عواطفهم هم جميعا . .

حتى خالها السيد أحمد قاسم وهو رجل وقور هادئ الطباع ، لم يكن يعرفنى على الإطلاق ، فلقد توجهت إلى المكتبة ذات الطابقين التى يديرها وأعرف أن ناريم تتردد عليها . . ثم تعمدت نسيان كتابى – بمحتواه من أحرف بارزة ومن رسم لى – إلى جوار خزانة الإيراد . . وإذا الرجل يعيد الكتاب إلى بعد حين وفمه يلهج بآيات الدعاء والإعجاب بشخصى . .

بل إن محاولتى إلقاء الكتاب إلى « ناريم » عند تجوالها بحديقة منزلها المتزوية الشاهقة السور أصيبت بالإخفاق كذلك ، وبالرغم من مشاق انتظارى هبوطها للحديقة ، وترقبى ابتعاد الكلب « الأرمنت » الشرس ودفعى الكتاب من فرجة بين ضلفتى الباب الحديدى على مرأى من « ناريم » . . بالرغم من ذلك ظل الكتاب يرقد مدة يوم بأكمله على العشب الأخضر ، دون أن يعنى أحد بالتقاطه . . تغير واحد غير متوقع حدث . . فقد شاهدت الكلب الأرمنت يستلقى إلى جوار الكتاب فى تراخ ، أمسية اليوم التالى . . فلما تسللت لآخذ الكتاب هب على قوائمه ، وبدلا من مهاجمتى وجدته – لدهشتى البالغة – يستقبلنى بنباح خافت يشبه الأنين ، ثم اندفع يهز ذنبه ويلعق يدى بلسانه الضخم !

فى ختام الثلاثين يوما ، كانت حالى قد ساءت ، وكانت معنوياتى قد هبطت إلى الحضيض . . لامفر من وضع ختام للموضوع برمته !

وقررت أن أخوض معركتى الأخيرة ، مهما قست . . فإما انتصار حاسم ، وإما هزيمة كبرى لاقيام بعدها . .

فى محطة سيدى بشر ، وقد أعلنت ساعة معصمى الثامنة صباحا ، وقفت « ناريم » تنتظر قدوم ترام الرمل ، وهى تولينى ظهرها ، وتتحدث إلى صديقتين لها . . وكان شعرها الأسود ينسكب حول عنقها البديع قصيرا لامعا ، يتوجها بهالة

فاحمة هى أرق لمسة ربانية متعت بها بصرى . .

وحين اقتربت من مواجهتها ، لمحتها تضع نظارة شمسية أنيقة فوق أنفها الطيع الانحناء ، وقد ارتدت ثوبا أصفر يبرز مفاتنها فى احتشام واضح . . واتضح لى ثغرها يفترّ عن صف مضىء من الأسنان اللؤلؤية تحدّها عن يمين وعن يسار سنّتان استطالتا قليلا عن أخواتهما ، لتزيدا فى إضفاء الجاذبية على شفتيها المتوردتين بلاطلاء . .

وتسلل إلىّ صوتها . . ميزته من بين عشرات كتغريد بلبل شجى فى نغماته البهيجة الزاخرة بحب الحياة . . ومن بين الواقفين ، رمقتنى بلاقصد بنظراتها . . وهنا شاب صوتها بعض الخفوت ، وبدا على قوامها التململ ، تستعجل قدوم الترام ليخلصها من حرج تخشاه . وقبل أن يتوقف القطار الكهربائى تماما ، وجدت « ناريم » تقفز فى رشاقة لتروغ بين الناس سابقة صاحبتيها ، كأنها تنشد التوارى فى ركن أعجز عن اكتشافه .

واحترمت رغبتها بل ساعدتها بجمودى على ستر مايدور بيننا من صراع وإن شجعنى تخاذلها الطارئ على إعداد خطوتى التالية بوسيلة أكثر جرأة . .

توقف الترام بمحطة الرمل . . هبطت هى مسرعة ، وهبطت بدورى وراءها منطلقا كالصاروخ . استماتت فى التوارى بين الجموع ، لكنى لم أدعها تغيب عن عينى . . اندفعت فى شارع « صفية زغلول » وكنت خلفها بمتر أومترين . . وعرجت على شارع جانبى ، وتوغلت فيه ، فتقدمت إلى جوارها تماما . .

– آنسة ناريم !

توقفت دفعة واحدة : « هه ؟ ! »

– أرجوك لحظة . . من فضلك .

ولمحت الكتاب فى يدى فأجفلت : «آه ، الكتاب أيضا . . ياالحيرتى ! . . بالله فيم تصميمك على أن أقرأه . . ؟ »

– أريد أن أهديك إياه فحسب .

– هكذا ؟ !

– أجل . . بلا أى مطلب خلاف ذلك . .

ومدت يدا رخصة ، أصابعها من حرير أملس ، وجذبت الكتاب ، قائلة :

– هاته ، ولكن . . بشرط . .

تساءلت : «إنى رهن ماتطلبين» .

– أريد أن تكون هذه آخر مطارداتك القاسية لى . .

ضايقتنى حدتها ، مع أنها زادتها حسنا وبهاء . . بدت فى ثورتها المؤدبة وإيماءاتها المترفعة كالنيران التى تستعذب حرارتها . دون أن تلذعك . . التى تمدك بالضياء المبهر ، بغير أن تعشى عينيك . . بدت كتدفق الشلال الصاخب ، ساعة أن تتأمله تحت ضوء القمر . . فى حين أن رذاذه الرطب يلمس خديك ، يلمس قلبك . . كهبة الريح العاصفة ، التى تجذبك عنيفاً من واقعك الأرضى ، إلى دنيا الخيال فوق السحابات الحالمة . .

ارتفع حاجبى الأيسر ، وانفرج فمى عن احتجاج غاضب : «حينئذ يكون لى مطلب ثان . . »

– أوجزه !

– أن تعدينى بقراءة الكتاب الليلة . . أن تبدئى القراءة على الأقل . .

همست وهى ترمقنى فى عدم فهم غطى كل وجهها : «أ . . أعدك» .

وتمتمت وأنا أشعر بفرحة طاغية : «وأنا أعدك» .

وافترقنا . . هى إلى اتجاه مقر عملها وأنا إلى حيث أجد أقرب سيارة أجرة – فلم تكن سيارتى معى – لتحملنى إلى فيلا الدكتور عصمت منيب . .

فى الحجرة العلوية التى تطل تجاه البحر ، دون أن تراه ، عكف الدكتور – وأنا معه – على تشغيل أجهزته ، وقد تراصت بين الجدران الأربعة فأخفتها أوكادت . .

ثبّت صمامات كهربائية . . أضاء لمبات . . حرك مؤشرات ، أوصل دورات كهربية . . وفى واجهة الجهاز المستطيل ، الذى يتوسط الحائط الأيمن ، بدأت سن مدببة فى التحرك بداخل علبة بانورامية مستديرة . . والتقطت آذاننا أزيزا خافتا ، راح يشتد ويقوى ، حتى غلب ضجيجه على ما كان يتعالى من ضوضاء المواصلات بالخارج . .

وجذب الدكتور عصمت ذراعا ، فتحول الأزيز إلى صفير حاد ، يأتينا صداه من مناطق غائرة بصدورنا . .

– فى هذه اللحظة تنطلق الموجات اللاسلكية إلى حيث مقر عمل صاحبتك حسب الأبعاد التى قررتها . . على أننا سنوقف الإرسال فى الساعة الثانية ، لنستأنفه فى الثالثة ، فى اتجاه منزلها هذه المرة . .

وصمت الدكتور عصمت ، لأكمل مايقول ، يدغدغنى شعور طاغ بالارتياح ، فقد أوشكت على جنى الثمار :

– وبهذه الكيفية نضمن استغلال كل دقيقة تفتح فيها «ناريمي» الكتاب لصالحنا . . أو بالأحرى لصالحى وحدى !

بعد يومين ، حينما تقابلت وناريمي فى محطة الترام ، بدت مكتئبة . . فقلت لنفسى إنها لم تكمل الكتاب ، وربما تشاغلت أصلا عن فتحه . . وعقب مرور يومين آخرين ، قلت لنفسى – وأنا أراها تشيح عنى أثناء سيرها ، تتجاهل وجودى

بطريقة ملحوظة – إن لكبريائها حدًّا ولابد . . لكن فى أعقاب أسبوع كامل على أخذها الكتاب – فسرت ذلك بمقاومتها الفريدة لمفعول الموجات ، وعللت نفسى أنها دون ريب لن تقوى على الاستمرار فى النضال . . .

غير أن الأمر تبدل حين تم اكتمال شهر آخر ، فلم أجد مفرا من اقتحام فيلا الدكتور عصمت . وأنا لاأملك ستر غضبى وثورتى عليه . .

قلت للدكتور ، من بين أسنانى : « لقد مرت ثلاثون يوما بلاأدنى نتيجة » .

وأجاب من تحت شاربه : « أمرها يحيرنى . . لاجدال فى أن هناك سرا يُغلق علىّ » .

– بالطبع هناك سر . . فما حله !

– لاأدرى . . لاأدرى . .

لكن ومضة فكر ملتاعة خدشت مخى ، فقلت لنفسى ولم لاتكون ناريم فتاة بلاقلب . . بلاعواطف كلية . . واسترحت لهذا الخاطر ، برغم عدم اقتناعى به . . لقد وجدت كبريائى فى النهاية ماتتوارى خلفه ، حتى تلعق جراحها فى صمت . . بعيدا عن أعين شامتة ، لاوجود لها إلا فى داخلى . .

ومرت أيام عديدة ، بلاطعم . . لم أعرف لها حصرا . . تجنبت فيها رؤية «ناريم» . . حتى كان ذلك الصباح ، وأنا مستلق على رمال شاطئ سيدى بشر ، تظللنى شمسية برتقالية الألوان ، وقد شرد بصرى ، وتملكنى عزوف عن مشاركة المستحمين لهوهم وعبثهم . . وفجأة ، رأيتها تتقدم من مكانى فى تردد . . بدت شاحبة ، كأنها تشكو مرضا . .

وعندما حاذتنى ، أشحت بوجهى أتجنب نظراتها ، وأنا أهم بالوقوف تأهبا للهرب بعيداً . . لكن همسا فيه ضراعة ، وفيه عطر هفهاف ، احتوانى . .

– لا ، أرجوك . . جاء دورى لأطلب منك الإنصات إلى . .

قلت بجفاء : « وماذا تنشدين ؟ »

أبرزت « ناريم » مجموعة من الكتب لم أتبينها : « رواياتك هذه ، التى من تأليفك . . لقد قرأتها . . كم هى مؤثرة ، وكم وجدت كلماتك وأفكارك ضمن سطورها ساحرة . . رائعة » !

استدرت إليها ببطء : « أحقا ياناريم ؟ »

– وهل أبحث عنك طويلا لأسمعك خلاف ماأعتقد ؟

– أحقا أعجبتك كتاباتى؟

رنت إلى بروحها : « صدقنى . . لم يأسر مشاعرى وينسينى وجودى شىء مثلما فعلت هى . . خاصة الأخيرة منها : « امرأة حائرة » . . فمن خلالها عرفت حقيقة جوهرك . . لماذا بالله . . لماذا لم تعطنى واحدة منها من المبدأ ؟ . . إنما أثقلتنى بتلك الرواية الأجنبية السخيفة ذات الأحرف البارزة . . ! »

– وهل قرأت الرواية الأجنبية ؟

كان سؤالا لم أقو على كبحه . .

أجابت : « قرأتها حتى آخرها فى ذات الليلة التى أخذتها منك فيها . . وبكيفية أتعبت عينى اللتين لاتحتملان النظارة الطبية مدة طويلة . . ولولا وعدى لنحيتها قبل أن أكملها . . »

لكنى قاطعتها ، وقد انفتحت طاقة فى جمجمتى : « تقولين نظارة طبية ؟ »

– أجل . . فأنا لاأقوى على القراءة بدونها . .

سألتها وضربات قلبى تتضاعف : « نظارتك ملوّنة العدستين . . أليس كذلك ؟ »

– بالضبط . . هى زرقاء وليست بيضاء . .

ورحت أكرر برغمى ، ويداى تبحثان عن أصابعها الدافئة : « إذاً فقد قرأت الكتاب . . أقصد الرواية الأجنبية من خلال عدستى النظارة الطبية . . الزرقاوين ؟ ! »

حدجتنى فى براءة : وماذا فى ذلك ؟ !

قلت ويدى تدغدغان أصابعها : « لاشىء ياصغيرتى . . لاشىء بالمرة ! ومنذ ذلك اليوم لم تفترق الأيدى الأربع إطلاقا . .

## ابن البرق . .

فى عنف وضراوة راحت العاصفة تمد مخالب قاسية فوق الغابة ، بدت كوحش خرافى يتأهب لاعتصار ضحيته بألف ذراع كريهة . . وراحت تدفع بمزيد من الرياح المجنونة ، ومزيد من السحب السوداء الثقيلة . . وبغتة أومض قوس عال يخطف البصر ، تبعته جلجلة تصم الآذان . . وبطول الممر المعتم برغم انتصاف النهار ، والذى يخترق الغابة بطولها ، انحنت أشجار « الجازورينة » تعلن استسلامها صاغرة لغضبة الطبيعة . .

« ما هذا ؟ . أى هول ألقاه ! . . هل أعود أدراجى بعد أن قطعت كل هذا الشوط من الطريق ؟ . قد أكون معرضا للهلاك ؟ . . بل أنا معرض بالفعل ، فلو انقضت صاعقة لشب حريق ، وحينئذ فأين المهرب ؟ . أين وجدران الأشجار تحيطنى فى إحكام من كل جانب ؟؟ » .

لكز الرجل – عريض الصدر – الجواد الذى يمتطيه لكزتين قويتين يستحثه على مضاعفة الجهد . . فصهل المسكين مشرئبا بقائمتيه الأماميتين ، ليقفز قفزة مهولة بالأخريين الخلفيتين ، مواصلا عدوه المحموم . .

« فى طفولتى ، كنت أترقب هبوب العواصف باشتياق وحنين . . هو غرام شاذ لا أنكره ، فقد كنت أنتشى لمرأى الصواعق تبتر رءوس أشجار الغابة ونخيلها ، تحرقها ، تمتص الحياة من جذورها . . الموقف يختلف الآن . . هل يختلف حقا ؟ . ألا أحس بنفس مشاعر الغبطة المبهمة ؟ . ألا يثير لمعان البرق فى صدرى بهجة وتعلقا بشىء أجهله ؟ . لكن الحريق ، ألسنة النيران المخيفة . . لو اندلعت لهلكت لا محالة ! »

ويعود الرجل إلى حث جواده فى عصبية ، وقد تصلب جسده الفارع ، فكادت ساقاه تطرقان الأرض من طولها . . وراح يمد عنقه أماما ، يسبقه شاربه الكثيف ، وتحاول عيناه الكليلتان تفحص مساره خلال اندفاعته الهوجاء ، عبر الأتون الناشب بين الأرض والسماء . .

وتلمع ضياء لافحة مبهرة ، وتدوى فرقعة تمزق الكون . .

لو هطل المطر لسلمت الغابة وسكانها ، من ضرر الصاعقة . . لكن الدفء الشاذ ، الجاثم على كاهله . . إنه ينذر بشر مستطير . .

وتضاء أنحاء الغابة من جديد ، والفرقعة الوحشية فوق قمة الرأس هذه المرة . .

« يا إلهى . . آه ! . . . آه ! . .

وتخترق شحنة الكهرباء الجهنمية لحم الرجل ، ومن تحته لحم جواده ، وتلقى فى ضرواة كل منهما إلى اتجاه ، وقد سكنت كل خلجة فى ثنايا جسديهما . .

* * *

رحلت العاصفة . . هدأت الرياح . وتفرقت السحب ، وبات البرق يرى كوميض باهت يلمع ضعيفا فى إتجاه الجنوب الشرق . . وهبت نسمة باردة تبدد ما تبق من روائح عطنة تثير الغثيان ، وتكتسح فى نفس الوقت معالم الوجه المسجى على ظهره كحجر أصم . .

وتسللت نسمة تالية إلى أعماق رئتى الرجل ، فاختلجت أهدابه . . تململت ذقنه وشفتاه ، وأخيرا تحركت أطرافه الجامدة فى وهن . . على أن قوى مستترة تدفقت فى دماء الرجل وأعصابه ، معربدة . . فإذا بعضلاته تتقبض فى عنف ، وإذا بأطرافه تتشنج ، تتقوس ، ثم تتمدد فى جبروت ، ليستقيم معها الجسد العملاق بأكمله . .

هب الرجل يقف على ساقيه صحيحا معافى . يعمّه شعور غامر بالنشاط والتألق النفسى . . بل يحس تجددا شاذا ، عارما فى قواه . . يفجر الطاقة فى كل خلية بداخله . . وتنبه الرجل لملابسه ، وتعجب لاحتراقها . . كذلك لمح جواده ملقى على جانبه ، تكاد الظلمة تخفيه . . وحين حاذاه ، وجده نافقا ، متفحم الأطراف ، كأنه قد شُوِىَ طويلا على نار حامية . . حينئذ تذكر الرجل العاصفة التى عربدت منذ ساعات . . تذكر الريح والسحب والدفء ، وتذكر الصاعقة وهى تنقض على رأسه ، تخترق مخه إلى سائر بدنه . .

« رباه ، عفوك ! . كيف تعبرنى شحنة الكهرباء المهولة ولا أموت . . هل مرت من خلالى ، بين ثنايا لحمى ودمى . . حقيقة ! »

إن الجواد النافق يشهد بذلك ، ودائرة الأشجار المتلاشية أغصانها من آثار الحرارة اللافحة ، والحشائش المتكسرة الذابلة ، والتربة المسوَّدة : . وكذا الحفرة المتوسطة الغائرة عميقا فى الأرض . . كلها تنطق بالكارثة . .

انتابت الرجل كآبة . . أحس انزعاجا . لكن النشوة الغامضة الفائرة فى عروقه ، خففت الواقع الذى يمسك بخناقه ، فخفض بصره متجنبا ، متهربا . . وراح يبحث فى عجلة عن الحقيبة البنية ، التى أفلتتها قبضته لدى السقطة الغادرة . . فما كان ليستغنى عن الأدوات الطبية التى تضمها . . لأنه كان طبيبا !

« يجب أن أعثر عليها سريعا ، فالسيدة توشك على الوضع ، وقد طال انتظارها لمقدمى . . يجب أن أصل قبل وصول المولود . . »

وجد الرجل ضالته . . ومع استعادة أصابعه للمسات مقبض الحقيبة الخشن ، اندفعت قدماه تأخذان نفس الاتجاه الذى كان يأخذه جواده من قبل . . وكانت ضربات قدميه قوية راسخة ، فيها حيوية لا تتفق وما تعرض له صاحبهما من هول قريب . .

* * *

طرقت يده الغليظة الباب المطلى بلون أزرق زاه ، وقد تعالت من وراء خشبه الرطب صرخات امرأة . .

– عجل ! . . أنا عزمى الطبيب . .

فتح الباب على أقصاه . . نفذ الرجل الضخم كالصاروخ ، متجهما مزموم الفم . . ومن بين شفتيه المغلقتين ، تناثر زبد خفيف ، وتناثرت كلمات : « لا تحملق فىّ هكذا ! . . إيه ؟ . لقد تعرضت لحادثة خلال العاصفة ، وهو ما مزق ملابسى وعطل مجيئى . . بحق السماء تحرك . . قم بإعداد وعاء مناسب . واملأه ماء فاترا ، وأحضر ملاءة كبيرة ومنشفتين . . وأبق وعاء آخر به مياه تغلى على الموقد . ! » .

وكف الرجل ، فقد لحظ مقبض حقيبته المتفحم وهو يهم بفتحها . . متى

طالت النار المقبض ؟ . . أتم ذلك وقت أن احترق الجواد والشجرة والتربة ؟ . . لكن ذاكرته تعانده ، فالحقيبة – حين عثر عليها – لم تكن مشوهة المقبض . .

– اسمع . . خذ هذ المحقن ، واغله أيضاً . !

وتوارى زوج السيدة يبادر بتنفيذ ما طلب منه ، وهو لا يقوى على منع نفسه من التعجب لارتباك الطبيب ولمنظر ملابسه المحترقة ، كأن قنبلة انفجرت فيه . . فى حين ارتمى الطبيب على مقعد ضخم ، يلتقط أنفاسه ، ويريح ذراعيه وكفيه على مسنديه . .

وتصاعدت إلى أنف الطبيب رائحة مثيرة . . مجرد لفحة هواء يسيرة ، عطنة ، لها لسع حريق القماش المميزة حين تزكم الجيوب الأنفية . . « هه ؟ . . من أين تأتى ؟ » . . وبغتة تتعلق عيناه بالنسيج التيلى الذى يغطى مسندى المقعد تحت كفيه . . رآه يتلاشى ببطء تحت أصابعه وراحتى يديه . . وأسرع يرفع ذراعيه مرتاعا ، ليجد خشب المسندين يحترق كذلك ، بعد أن تعريا مما يسترهما . .

« الرحمة يا إلهى ! . . كيف سرت هذه النار ؟ . من أين جاءت ؟ . . قبل وضع كفىّ ، كان القماش على المسندين متماسكا ، سليما ، فكيف يحدث هذا ؟ . . هل ؟ . . لا . لا . . مستحيل . . بعيد عن التصديق . . لكنه . . لقد وقع مرتين ، إن لم تخنى ذاكرتى . . إن مصدر النار . . هما كفاى وحدهما ! » .

دون صوت انتصب الرجل واقفا . . والحق يقال ، فبرغم النشاط المتفجر فى أعماقه – من قمة رأسه إلى أخمص قدميه – كان وجهه السمين شاحبا هذه المرة ، وكان شاربه ضامرا متهدلا ! .

وبدا عليه التردد ثانية أو ثانيتين ، كأنهما دهر بأكمله . . ومن داخله انطلقت زفرة متحشرجة أيقظته ، أو أماتت مشاعره . . فإذا به يستدير بمشقة تجاه باب

الخروج ، يدفعه بقدمه شذرا . ينفلت منه كأنه يتوارى من شيطان يطارده ، يبتعد وقد أصم أذنيه عن الصرخات الداوية فى أقصى البيت أو أقصى الأفق . مزيحا عن مخيلته الوجه الذى تركه يتقلص من حدة الألم ، ويتأرجح فى كفة القدر ، ومقصيا عنه كذلك أهمية الحقيبة وما بها من أدوات للمهنة التى يزاولها منذ عشرين عاما خلت !

* * *

– فى الشتاء ، فى ديسمبر من آخر العام الماضى . . أتتذكر حينما تركت البلدة فجأة ، وسافرت إلى الصعيد ، . . لقد كان السبب الحقيقى لرحيلى هو ما جئتك بشأنه الآن . وليس رغبتى فى الاستشفاء كما ادعيت وقتها . . هه ! الاستشفاء مم ، وأنا قوى البنية وصحتى فى عنفوانها ؟ . . وإن كنت لا أخفى عليك أن نفسيتى وقتها قد حطمها شىء ما . . وهل الذى وقع لى بالقليل ؟ أهو أمر طبيعى يقع عادة لسائر الناس ؟ . . باختصار . . بلطيم . . مدينة المليون نخلة تعانق بحيرة البرلس الساحرة . . مدينتنا ، على ما يمتاز به شاطئها من جو رائع صيفا ، تكون قاسية شتاء . . تراها خلال أشهره مكفهرة السماء ، قارسة البرد ، تجتاحها العواصف ونوات البحر على الدوام . . وقد بدأ الأمر معى ، لأول مرة ، ليلة الثانى من ديسمبر المنصرم . . كانت العاصفة وقتئذ تزأر على أشدها ، ودون توقع لطمتنى أول شحنة كهرباء جوية . . أول صاعقة ! . . صدقنى ! . . فى المرات الثلاث – أقسم لك – أنها اخترقت جسدى نازلة من قمة رأسى . . ثم كانت هذه النشوة الفائقة تجتاحنى ، تدبّ فى كل جزء فىّ ، جبارة مسيطرة . . ثم إحساسى المذهل بتجدد قواى . . ثم . . ثم . . بالله ماذا أقول ؟ . . وفى النهاية ، تكون تلك النار المجهولة التى تظهر حولى ، ينفثها جسدى . . يداى بالذات ، أو تشعها طاقة غير مرئية فيما يحيطنى . .

أينما سرت أو تحركت أو وجدت ! . . وأخيرا ، فهذا كل ما لدى . . هذه هى حقيقة ما أعيشه منذ ذلك التاريخ . وقد جئتك من بلطيم إلى القاهرة خصيصا من أجله . . فما العمل يا حسن بعد الذى سمعت منى . ؟

لم يجب الأخ المدعو حسنا ، وإنما استلقى على الأريكة ، ملقيا بجسده المكتنز القصير إلى الوراء ، ومغمضا عينيه القابعتين خلف عدستين سميكتين ، وقد طوته نوبة استغراق عميق . .

وامتد الصمت فشمل أنحاء الشرفة المربعة ، المزينة بأستار حريرية وردية التطريز ، والتى راحت نسمات الطابق العشرين بالبناية الشاهقة تطيرها إلى الداخل فى موجات حانية . . على أن النسيم شارك الصمت وجوده ، فكفّ بدوره ، لتنزاح الأستار عن مرآة ضخمة ذات إطار ذهبى رفيع . . حينئذ اتضحت الخطوط المنطبعة على صفحة المرآة . . الرجل الضخم فى حلته الرمادية . . والشعر الغزير على رأسه وفوق ظهر يديه ، ويبرز من أذنيه ومنخاريه ، وقد قبع بطريقة متحدية على كرسيه . . وجهه محملق مجهد وعنقه ممدود مشدود وصدره منتفش ، فوق فخذين غليظتين ، وساقين مشتبكتين تؤلفان الرقم سبعة . .

وفى المواجهة ، على الأريكة . جلس الرجل الثانى ، بمنامته الباهتة الإخضرار ، وقد بدا ناعم الشعر ، حليق الشارب ، أسمر البشرة ، بارزاً عظام الوجنتين . . وكما أسلفنا ، كان ملقيا بجسده المكتنز القصير إلى الوراء ، تكاد ساقاه تلمسان الأرض ، وهو يبسط ذراعين يضيق بسمكها كمّى المنامة على كلا جانبيه ، آخذا راحته ، مرخيا بدنه ، مطلقا لعقله أقصى طاقاته . .

« لماذا لم يتكلم ؟ . لم لا يرتخى ويقول شيئا ؟ » .

دون أن يعتدل ، تساءل حسن فى صوت هامس : «عقب لمس الصاعقة

لبدنك . . فكم من الوقت يظل انبثاق النار المجهولة منك ، أو سريانها من حولك ؟ »

تدفقت كلمات الطبيب على الفور : « فى المرة الأولى ظل لأكثر من يومين ، وفى الثانية يوما ونصف اليوم . . أما فى هذه الأخيرة ، فلم يستمر لأكثر من يوم واحد ! »

« ترى هل أخبره أيضا بأننى احتضنت قطا فى المرة الثانية ، فقتلته حرقا ؟ ! »

– وطاقة هذه النار ، أو قدرتها . . أتظل على نفس المستوى أم تخف حدتها !

– لا أدرى . . لم أعتن بملاحظة ذلك . .

ثم أضاف وهو يهز رأسه فى لهجة الواثق : « على أى الحالات ، فهذا دورك ياحسن . . أنت عالم متخصص فى الكهرباء واستخداماتها المعقدة ، بصرف النظر عن أنك صديق الطفولة . . أما أنا فعالمى الطب الباطنى فحسب » .

قال حسن على حين غرة ، وقد قفز واقفا ، فاتضح مبلغ قصر قامته . .

– عظيم . . فلنجر تجربة صغيرة يا عزمى ! . . هيا ناولنى كفك !

أخرج حسن عدسة مكبرة ، وبعين خبيرة انطلق يجول ببصره فى أنحاء المسام الجلدية البارزة للكف التى انفرجت على اتساعها ، ففاق حجمها حجم كفى حسن معا . .

– عظيم . . والآن . أرجوك . . ضع أصبعين على تجويفى هذين الثقبين ! »

انكمشت جبهة الطبيب : « فيشة كهربائية ؟ »

– حسب تقديرى . . لن يحدث ما يضرك !

نهض الطبيب العملاق . . تقدم خطوة ، ورفع ذراعه . . وفى تردد تشوبه المكابرة ، استقرت أصبعان سميكتان على ثقبى « الفيشة » المستديرة . . ورعدة هينة

تشمل الكتفين والصدر ، واصفرار طفيف يصبغ الشفتين ، اعقبتها آهة نابعة من نخاع العظام . . ويزداد ضغط الأصبعين ، بل ارتكازهما فى لهفة على الثقبين ، وقد اجتاحت أحاسيس عذبة شرايين الطبيب . وانعكست على قسماته !

– عظيم للغاية . . هذه المرة ، أمسك بأصابع اليد الطليقة « لمبة » الكهرباء هذه . . لف الأصابع حول الجزء النحاسى بأسفلها ! .

ولا يكمل حسن توجيهاته ، حتى يشع ضوء ساطع من يد الطبيب الثانية . .

– والآن : ارفع أصابعك يا عزيزى عن الفيشة . . أحسنت ! . . ولتأت معى إلى جهاز مجاور ، فسوف نجرى تجربة أخرى هينة . .

وأحضر « حسن » كوبا به مادة مذابة ، وقال :

– رائع . . بل مثير . . حاول أن تتجرع محتويات هذه الكوب . . لا ترفع حاجبك ، فالمادة المجروشة ليست مرة ولا لاذعة . .

– رائع . . أمسك هذين السلكين ، كل فى يد . . سأعد لعشرة ، وعندها أقفز عاليا . . كما ترى ، تجربة سهلة . . واحد . . اثنان . . ثلاثة . .

– رائع . . اقترب أكثر يا عزمى ! . . بقيت تجربة أخيرة . .

–رائع . . رائع . . ! إنه أكثر مما قدرت . . أكثر مما جال فى تصورى بمراحل . . والآن لتسترح قليلا ، فقد انتهت اختباراتى . . لا أتوسل إليك . . إنك مشحون حاليا بالطاقة ، فلا تجلس على المقعد ، ولا على أى أثاث كى لا تترك بصماتك الحارقة عليه !

« معك حق . . إننى مصدر خطر فعلى على كل ما هو قابل للاشتعال ، متى لمستنى الكهرباء » .

* * *

ويترك الطبيب الفيشة بيد ، فتنطفئ لمبة الكهرباء فى اليد الأخرى . . ولا يجد الرجل مفرا من افتراش أرضية الشرفة المرصوفة ببلاط سداسى الشكل ، مزخرف برسوم بيضاء وسوداء . .

ولا يعود الرجل الثانى المسمى حسنا إلى جلسته فوق الأريكة ، وإنما يأخذ وقفة مواجهة لانفراج الستار عن بانورامية أخاذة ، ملؤها الأضواء المتلألئة على صفحة النيل ، تنساب برفق أسفل البناية . .

– انتبه يا عزمى ! . . أنصت إلى جيدا . . أنت إنسان حباك الله بجسد فريد فى نوعه ، ولا يوجد قط مثله على ظهر كوكبنا الأرضى ، أو – على وجه التحديد – هو الأوحد فى أيامنا . . فقد قرأت عن وجود ندرة محدودة كانت تمتلك نفس صفات تكوينك . . ذلك كان فى الأزمنة السابقة علينا وليس فى عصرنا الحالى . . !

– ما الذى تعنيه ؟

– إن خلاياك تتمتع بخاصية استقبال مدهشة للتيار الكهربائى واختزانه ، وهى بالتالى تمثل قطبا نشيطا مع كهربائية السحب ، والإشعاعات الكونية المستمدة من طاقة الشمس . . وعليه فالشخص العادى حين يجابه شحنة كهرباء عالية التردد – كشحنة البرق – يصعق فى الحال . . أما أنت ، فمختلف عن الناس قاطبة . . خلايا جسدك ، وبالذات الجلدية منها ، لديها القدرة على امتصاص كميات من المعادن المختلفة ، تصنع وقاء لها يحمى ولا يضرّ . . لذلك فعند استقبال شحنات عالية التردد ، يسمح الوقاء بامتصاصه ، ثم اختزانه حتى يتسرب ببطء فيما بعد ! . .

ضم الطبيب المفترش أرضية الشرفة ساقية إلى جسده ، وأحاطها بذراعيه . . فى حين كانت الحيرة تغرق وجهه إلى ما وراء أذنيه المحمرتين .

– معنى ذلك ، أن ما أعانيه . . لنقل إنه . . حالة نادرة ! .

– تماما . .

– وإنه لا علاج لديك من أجلى ؟

انفجر حسن : « عليك بتجنب مصادر طاقة الكهرباء أينما وجدت . . مثلا وقت العاصفة ، لا تغادر بيتك . وهذا هو العلاج . . لكن علامَ اللجوء إليه ؟ . بالطبع لا داعى لذلك يا عزمى ! . . إننى أنصحك بأن تستغل قدرتك الخارقة فيما يفيد . . استفد من المنحة المباركة ولا تركلها ! .

– كيف . . كيف . . ؟

– ليس شأنى . . أنت طبيب ، وربما أفادتك قدرتك فيما يعود بالخير على مرضاك . .

* * *

مع حلول شهر ديسمبر من العالم التالى ، وفى واحدة من القرى النائية بمحافظة البحيرة . . تلك المسماة بقرية « البرج » وتقع غربا بثمانية كيلومترات من مدينة أبو المطامير أحد المراكز الهامة بهذه المنطقة ، أخذ أهالى قرية البرج والقرى المحيطة بها ينسبون عديدا من الكرامات الخارقة لشيخ عملاق ظهر بينهم مؤخرا . . إنه يشفى – وبصورة تدعو للإعجاب غالبية المعروف من أمراضهم ، وغير المعروف منها . . وبخاصة تلك التى تنسب إلى فرع « الروماتيزم » والتهابات المفاصل والعضلات . . وفى الوقت نفسه ، عجزت الشرطة عن إدانة الشيخ المهيب بتهم الدجل والنصب والاحتيال ، إذ كان لا يتعرض لغير المشاكل التى تصيب جسد الإنسان بالعطب ، وكان موفقا لأقصى الحدود فى علاجها . ولم يكن يتقاضى أجرا من أى نوع . . وكان رجلا متدينا كذلك ، قليل الكلام ، جليل الطلعة ، هادئا قسمات الوجه . .

حتى لكأن النور أو الدفء يشع من حوله ! . .

وهكذا ، وإلى يومنا الحاضر يسعى جموع الأهالى من قرية « البرج » بالبحيرة ، ومن القرى المجاورة ، بل من أقصى مدن الجمهورية وقراها ، إلى كوخ الشيخ المزوّد بمصباح كهربائى ضخم على بابه . . ولا يكفون عن الإحاطة به طوال ساعات الليل والنهار ، وهو لا يرد لقاصد الشفاء منهم طلبا . . بل يستقبل زواره دائما بابتسامته الراضية المعهودة ، وبقامته الفارعة فى جلبابه القاتم ، وقد أخفى كلتا يديه بداخل جيبى جلبابه . . فإذا ما أخرجها ، فهما ولابد مكسوتان بقفازين من معدن رقيق غير معروف . .

# تقرير عاجل . .

على الصخرة الداكنة ، التي تقبع فى ظل جرف من التلال البرتقالية الملساء ، تحرك الجسم بعد طول سكون . . كان أشبه ، بجذر الشجرة : مقلوبا ، سميكا من أسفل ، مدببا من أعلى ، يطول بارتفاع قامتين . . أزرق إسفنجيا ، تملؤه الزوائد والنتوءات العصبية البالغة الحساسية . .

بغتة ، وقد ظل دون حراك زمنا من قبل ، انتفض . . ارتجف ، شملته موجة من الاضطراب من قاعدته إلى ذؤابته . . ثم إذا بقمة الجذر تبدأ فى الانحناء ، والميل رويدا رويدا . . حتى تقوس الجذر ، ولامست قمته سطح الصخرة الخشن ، فى مستوى قاعدته . .

فى الحال ، وبسرعة مذهلة تقاس بأعشار ومض البرق ، اندفع الجذر عائدا إلى حالته الأصلية . . ولدى رجوعه ، وكما ينطلق السهم من القوس ، انطلقت

من قمة الجذر كرة من ضوء حانٍ غريب ، كأنها دائرة نورانية لها نواة من لهب . . وكان يشع من أحد أطرافها موج غير مرئى ، ويبدا أن الموج الذى يسبقها – أو تسير على هداه – يبث كذلك طنينا مسموعا خافت الإيقاع . .

انحدرت كرة الضوء بعيدا عن الصخرة ، وقد تجنبت بروزا حجريا فى الطريق إلى منخفض رملى ، أو انفلاق فى أديم التربة نفسها . . دارت الكرة حول البروز الحجرى ، ثم انطلقت عبر الانفلاق فى سرعتها الرتيبة غير العجلة . . وقابلت كرة الضوء كرتين أكثر إعتاما ، تحومان متجاورتين . . لكنها لم تعرهما اهتماما ، وظلت على تقدمها الحثيث . .

وانسابت كرة الضوء بغتة إلى أعلى ، تتخطى أربعا من قمم التلال ، الواحدة فى أعقاب الأخرى ، فى نعومة ويسر . . وما إن بلغت الجانب المقابل من الجبل ، حتى انكشف أمامها منظر فريد . . فإلى اليمين اتساع مهول ، بحر أو محيط ، مياهه الثقيلة حمراء فاقعة ، لكنها ساكنة صافية ، بلا موج . . وبلا حياة أيضا . . فلا رياح ، ولا هواء ، ولا جوٍ بالمرة فوقه . . وشاطئه إسمنتى ، بنته يد فنان لا يخطئ خطوط الهندسة الرائعة قيد أنملة . .

أما يسارا ، فقد امتدت تلك المسارات الطويلة ، ثلاثين أو أربعة وثلاثين أو أكثر بمسارين . . تتوغل بعيدا ، بعيدا ، عبر تلال أخرى ووهاد . وأودية ، وصحراوات ، كلها زاهية ، متباينة الألوان ، وإن غلب عليها اللون البرتقالى . . ومعظمها يعج بنماذج مختلفة الأحجام ، من نوع الجذر الذى انثنى فأطلق كرة الضوء الحانية . .

* * *

على أن كرتنا الأولى اختارت مسارا بعينه ، التحمت به بكيفية منظمة

معتادة ، وسرعان ما اندفعت عبره كما يندفع الشهاب بسرعته الخارقة عبر السماء . . وكانت هناك كرات أخرى من ضوء تعتلى نفس المسار ، أو تركب مسارات أخرى متقابلة ، أو متعارضة ، أو متوازية . .

ويا لها من أداة مواصلات مدهشة ! . . فما كادت كرة الضوء تصل نهاية مبتغاها ، حتى غادرت المسار لتقبل على ما يشبه تجمعا مهولا من قباب شاهقة ، متنوعة المرافق ، متعددة الجوانب ، لكنها بلا سقوف . . إنما هى مجرد فتحات تغطيها طبقات موجية عالية التردد . .

وحيث تعالت أصوات الطنين ، وحيث بلغت الحرارة بفعل تزاحم الكرات الضوئية حدا يفوق التصور ، انطلقت كرة الضوء تخترق صفوفا وراء صفوف من الكرات المنهمكة – هذه المرة – فى نفث شحنات من الطاقة ، تحرك بها نماذج مألوفة لديها من العدد والآلات المبهمة . الغامضة . المنظورة غير المسموعة . . وعلى البعد ، لدى الساحة المقعرة لأسفل ، كانت ثمة بناية تأخذ فى الارتفاع تلقائيا ، ولم تكتمل قبتها المفتوحة لأعلى بعد . .

لكن كرة الضوء استمرت فى طريقها عبر الكرات الأخرى ، تأخذ اتجاها مباشرا . منسابة فى ليونة ، فى عذوبة ، كأنها تطفو عبر تيار معنوى خفى .

وبرز أخيرا المبنى الشاهق ، ذو الرقائق الحجرية الضاوية ، من وراء التبة المعرضية ، وكانت تتوسطه البئر المحاطة بأستار الجليد الشفاف ، تفور منها النيران المقدسة ، المشتعلة بلا لهب ، بلا دخان ، بلا ضوضاء ! .

فى عجلة ، نفذت كرة الضوء عبر كوة فى جدار المبنى ، وانزلقت خلال ممر أنبوبى . . قابلت مصطبة بلورية ، تدور بداخلها فقاعات بيضاء – أو هى مصفرة اللون قليلا ، تتجه لأعلى . . كلما تلاقت فقاعتان انفجرتا ، لكن غيرهما يتكون فى

أسفل على الدوام . .

بيطء . . وأيضا فى حرص ، حطت كرة الضوء على المصطبة التى تضم الفقاعات . . استقرت عليها ، بل التصقت بها ، وقد فقدت كرويتها ، واعتراها بعض الانبعاج من أسفلها . . وعلى الفور ماجت الفقاعات وسرى فيها نوع من الهياج ، من الحمى . . راحت تتضارب وتتصارع وتتقاتل فى سرعة ، فى جنون . .

وتتالت فقرات أخطر تقرير فى تاريخ الكوكب البرتقالى ، السابح فى طرف مجرد « سكة التبانة » ، مأسورا . وتابعا للنجم المحتضر فى هذا الجزء الطرف النائى . . من مجموعة عوالم المجرة السابحة فى كون اللانهائية . .

« من الفكر الحقير ( زاح ) ، المنبثق من عجينة اللحم الثابتة منذ مولدها ، وحتى تفنى ، على الصخرة رقم ثلاث نقاط وعصوين ونغمة . .

تقرير عاجل « . لا يحتمل التأخير :

« مقدم إلى الفكر الأعظم ( خوماش ) ، المنبثق من عجينة اللحم المقدسة الثابتة منذ نقلت ، وإلى أن تفنى ، بداخل التربيع الأبدى ، مجاورا للنيران الباردة التى تحمى شعبنا : فقد أمكننا أثناء لحظة الزمن الموقوت بالوميض التاسع الحقبى لنجمنا الخابى ، وبمعونة المنظار التخاطرى المقرب ، والذى رُكّب ليدار بمعرفتى منذ قرابة عجلتين زمنيتين ثانويتين ، أن نرصد الطرف الآخر المقابل من مجرتنا . وقد أمكننا أن نرى فى ذيل ذلك الطرف السحيق ، شمسا تتبعها تسع كواكب مختلفة الأحجام ، ثبت لدينا بما ينتفى معه أى شك ، أن الكوكب الثالث – بالنسبة لبعده عن الشمس – يحوى كائنات . . مخلوقات حية ، أمكننا أن نكبر رؤيتنا لها ، وهى

تتحرك وتتنقل وتسعى ، فى دروب وأنحاء ذلك الكوكب . وهى ليست ثابتة الأجسام وتتنقل بالفكر – كما نحيا ونتنقل نحن على ثرى كوكبنا – وإنما هى تتنقل بأجسامها ، كما هى ، عبر أرض كوكبهم وبحره وسمائه .

« وقد تحققنا بالفعل من أن أجسام هذه الكائنات ، بالكوكب الثالث من مجموعة الشمس المذكورة ، أجسام معدنية مصفحة . . لها دروع ثقيلة ، أو هى رقيقة لكنها متينة محكمة . . بعضها يطير بزوائد أفقية على جانبيه ، أو زوائد رأسية أعلاه . وهى سريعة للغاية ، والبعض يسعى على الأرض وحده بأرجل دائرية رائعة ، أو يجر معه عددا على شاكلته فى طابور طويل فوق مسارات مثبتة فى التربة ، أو له زوائد من أعلى متصلة بأسلاك ضمن شبكة جهد علوية ، وله أرجل دائرية من أسفل . . وكلها أبطأ من الأولى . وهناك بعض يتحرك على صفحة اليم ، فى أحجام معظمها ضخم ، خاصة تلك التى تحمل صغارها الطائرة على ظهرها ، وهى ذات أجسام انسيابية رشيقة مدببة من طرفيها ، أو يغوص تحت اللجة فى أحجام أقل ضخامة . وجميع تلك التى تشق اليم هى الأبطأ حركة .

على أن أكثرية الكائنات السابق وصفها تنفث غازات ضارة ، من أعلاها أو أسفلها أو من جوانب لها ، وتصدر عنها ذبذبات صوتية مزعجة مريعة ، تتباين حدتها . إلا أن الغامض حقا – وهو محير كذلك – تلك الكائنات ذات الأجسام الكروية اللامعة ، الصامتة – وإن بثت فى النادر بعض النغمات – التى تنطلق إلى السماء ، لتظل تحلق وتحلق مقيدة الى جاذبية الكوكب ، حتى تحترق وتفنى .

« وبعد . . هذا تقريرنا الأول العاجل ، عما رصدناه مؤخرا . . عن مخلوقات تُعرَف وتُرى للمرة الأولى ، بكوكب آخر بطرف مجرتنا . . ويجرى إعداد تفاصيل

أكثر إثارة عن الكائنات ذات الأجسام المعدنية ، المصفحة ، أو الطيِّعة . وعن انفجارات مريبة تشبه النباتات العملاقة تصل السماء . . تتزايد ولا تتناقص ، مما يؤذن بقرب انشطار الكوكب ، دلالة على غضبة إلهية ماحقة » .

الفكر الحقير

زاح

# الطحلب . .

انطلق الرجل القصير القامة ، يغوص مندفعاً – بين صفين متقابلين من الأعشاب الغليظة قاتمة الاخضرار – تتبعه عن بعد بضع سمكات متطفلة من أسماك القاروص الأرقط ، وقد غطى وجهه بقناع الرئة المائية ، وحمل أنبوبة أكسيجين ضخمة ينوء بها ظهره ، فى حين لف وسطه بحزام عريض ، تتدلى منه سكين ذات نصل حاد ، ويتسلح بحربة طويلة فى يده . .

لمحت عين الرجل ، من خلف واجهة القناع الزجاجية ، حباراً صغيراً ينكمش على أكمة رملية بين سيقان الأعشاب ، فمد حربته يداعبه بوغزة خفيفة ، جعلت الحبار ينفث سحابة كثيفة من حبره الداكن ، ليفرَّ خلالها . .

وفى نهاية صفى الأعشاب ، برزت صخرة مرجانية شاهقة ، بدت – وهو يدور حولها – وكأنها قلعة حربية من قلاع العصور الوسطى ، تتلألأ بعشرات الأضواء

والألوان . . ومن بين شقوق المرجان وسيقانه النقية البياض ، كانت تبرز آلاف العيون ، تراقب الوافد الدخيل فى صمت وتوجس . .

بغتة ، انكسر القاع قبالته ، ليكشف عن أخدود واطئ تغلفه عتمة باهتة ، فألقى الرجل القصير بجسده ، يهبط الهوينى وسط هالة من جدائل الأشعة الصفراء الرفيعة ، حتى استقرت قدماه على الأرض الرملية الرخوة ، وغاصت فيها إلى الكعبين . . وأجال عينيه متفحصا ، لكن . . فيما عدا كرة أوكرتين من حيوان الإسفنج ، ويضع محارات فضية ، ونجمة بحر تتعثر فوق الرمال بوهن شديد ، لم يلحظ الرجل شيئاً ذا بال على مرمى بصره . . وتقدم يخطو فى تثاقل أكثر على صفحة الرمال ، تسبقه حربته ، فى حين خلّف وراءه ذيلا طويلا من فقاعات الهواء المتصاعدة . . وقابله سرب كثيف من أسماك البورى ، وهى تنساب فى دعة وتواز بأجسامها الأسطوانية المزدانة بخطوط زرقاء وخضراء ورمادية . . وتلاه سرب آخر من أسماك رنجة الصابوغة ، وسرب ثالث من أسماك الأنشوجة ذات الفم البارز . . ثم لمح سلحفاة بحرية تسبح متكاسلة ، ومن ورائها بدت مجموعة من نباتات العشب الثعبانى . . وفيما وراء النباتات ، اتضحت الهوة ، على غير انتظار ، تفتح فاها مظلماً ، وكأنه فوهة بركان يقبع على سطح القمر . .

كانت الهوة باتساع عدة أمتار ، وكانت صخرية الجدران ، ملساء ، تغطيها طبقة رقيقة من حيوانات «البلانكتون» المجهرية الخضراء . . لكنها لم تك عميقة القاع . .

حين أطل الرجل القصير – برأسه المغلّف بقناع الغوص – من عل ، استطاع برغم الظلمة السادرة أن يرى ، فى أعماق الهوة ، النبات الداكن يشغل ركناً بأكمله . . وقفز دون تردد ، ليتسمر مبهورا حيال قدرة الخالق وسمو إبداعه . . فعلى

العمق البعيد من سطح البحر ، شاهد أجمل ما وقعت عليه عيناه . . شاهده يقبع في مهابة وجلال ورفعة ، وقد ثبت جذوره القوية في نتوء صخرى ، وامتدت أوراقه الحمراء العريضة ، والمثناة الحواف ، فى شكل مروحة أو هرم مدرج متناسق التكوين . .

كان أشبه بوحش خراف ، خضبته الدماء القانية ، ومع ذلك بدا حلوا رائع القسمات . . وكادت ذاكرة الرجل أن تخونه فى المبدأ ، فيختلط عليه الأمر . . ولكنه سرعان ما تأكد من أنه بإزاء طحلب « الماكروسيستس بريفرا » ، وهو نوع عملاق من الطحالب البنية ، التى تكوّن ما يعرف بغابات الأعماق فى أعالى المحيطات . . كانت بحق شجرة فريدة من هذا الطحلب ، الذى يندر وجوده على الشواطئ المصرية . . وبلا أقل تفكير ، جذب الرجل القصير سكينه من غمدها . وانحنى فى لهفة يخلص الجذور البيضاء من مكمنها فى الصخرة ، ثم يحتضن النبات الثقيل الوزن بكلتا يديه ، ويسارع بالارتفاع به إلى سطح الماء . .

* * *

– يا للأسى يا بكرى ! . . ما هذه البقع التى تلطخ السجادة ؟ . . وما الذى تلقى به فى نهاية البهو ؟

حاول بكرى أن يفتح فمه : « إننى لست سوى منفذ للتعليمات يا سيدتى » .

لكن الصوت الرفيع الحاد ، المنبعث من أعلى السلم الخشبى ، طغى على نبراته الخافتة فى أسفل : « أنت سائق السيارة . . والأستاذ هو الذى أمرك بإدخال ذلك الشىء إلى هنا . . ولكن ألم أنبه مرارًا إلى عدم جلب القاذورات إلى داخل الفيلا ! »

اعترض بكرى فى أدب : « إن النبات محمول فى وعاء ، والوعاء... »

فقاطعه صوتها وهو يثقب أذنيه فى إصرار : « مع كلٍّ ، فقد تسبب فى اتساخ السجادة ، وركن البهو . . وكذا السلم الخارجى . . ولا أدرى ما الذى سيتسخ بدوره ؟ »

ثم بدا وكأن نغمة مبحوحة تتعالى من اتجاه باب « الفيلا » الرئيسى ، المزدان بألواح عريضة من البلور المموّه الثمين .

– هونى عليك . . البقع مصدرها مياه عادية ، سرعان ما تجف . .

تطلعت السيدة الواقفة بأعلى ، من خلف عويناتها السميكة ، فى اتجاه الرجل المنضغط القامة ، والمستدير الوجه – مثل وجوه الأطفال ، على الرغم من شاربه الرفيع المعتنى بتشذيبه أفقيا – فرأته يلتقط كرسيا يلقى عليه بجسده فى تحد ، وقد برزت خصلات الشعر الكثيف من فتحة الصدر بقميصه ، وبطول ساقيه وقد انحسر عنهما ساقا السروال بعناية . .

– آه ، هذا أنت يا عزيزى . . اسمع يا أدهم . سواء نتجت البقع عن مياه أو عن غيرها ، فإن كل ما يعنينى هو نظافة بيتى . . أما ما تجلبه من قواقع وأشجار وحيوانات لتجرى عليها تجاربك التى أجهلها ، فليس مكانها هنا . . فى البهو ، أو الحجرات . .

انتصب الرجل واقفاً وقد كسا وجهه شيء من التفاؤل ، وقال وهو يومئ إلى النبات المكوّم بركن البهو : « إنك لم ترى بعد ما جلبته من أعماق البحر ! »

أومأت السيدة ، وهى تضم ثنايا الثوب الحريرى على جسدها البدين : « بل أرى الشجرة من مكانى بوضوح . . »

رسم ابتسامة مرحة على شفتيه : « هو ليس شجرة بمعنى الكلمة . . إنه طحلب ، التقطته من مكان يقابل شاطئ المكس القديم . . »

اتضح التقزز فى انكماش قسماتها : « طحلب ؟ ! »

– أجل . . كائن مائى ينمو على أعماق متفاوتة من سطح البحر . . ألا يوحى مظهره بالقوة ، بالسمو . . لقد كان معجزة أن أعثر عليه ، فى ذلك المكان بالذات ، على عمق اثنى عشر مترا فحسب ، فإن نوعه نادر الوجود فى البحر المتوسط . . بل فى البحار عادة ، لأن موطنه المحيطات . . حيث المياه المفتوحة الصاخبة على الدوام ، والتيارات المحملة بالزبد وبالعناصر المجهرية الدقيقة ، وحيث . . . » .

غير أن السيدة أشاحت بوجهها ، وهى تشير إلى الطحلب فى ازدراء ، وتمتمت محدثة السائق من أنفها بلا مبالاة ، وكأنها قد أعطت زوجها أكثر مما تستطيع من وقتها . .

– والآن يابكرى ، ألق به فى القبو . .

قالتها وهى تمد ساقها البضة ، تهبط ما تبقى من درجات السلم . . وحين أكملت الهبوط ، عبرت البهو مارة أمام زوجها يكسوها وقار مصطنع ، إلى أن توارت فى حجرة جانبية ، بعد أن خلفت وراءها نفحة من عطر البنفسج الثقيل . . فى حين احتضن بكرى الوعاء وبه الطحلب ، واستدار فى صمت آخذاً طريقه إلى القبو . . يتبعه سيده مستكينا ، وقد اعتراه شىء من الرثاء لها . .

* * *

لم تكن المرة الأولى التى يقابل فيها أدهم راشد بجفاء زوجته ، فقد تعود منذ زواجه منها – منذ أكثر من ثلاثين عاما مضت – على أعصابها الخربة ، المشدودة بمناسبة وبلا مناسبة . . صحيح أنها كانت لا تدخر جهدًا فى الحنو عليه ، والسهر على راحته ، وطالما حثته ووقفت بجواره خلال رحلة حياتهما معاً . حتى زوجا

ابنتهما « ألفت » من ذلك المهندس الشاب ، واستطاعا أن يلحقا ابنهما الأصغر « عبد الحميد » بوظيفة مرموقة عقب عودته من دراسته الأكاديمية بالخارج !.

غير أنها كانت تضع فيلتها فى المقام الأول من إعزازها ، وتحرص أشد الحرص على نظافتها وترتيبها وتزيينها ، بصورة تصل إلى الإفراط دواما . . وقد زاد انغماسها فى شئون « الفيلا » ، وزادت حدتها فى رعاية مهامها خلال العامين الأخيرين ، لدرجة الشكوى والاحتجاج إزاء أقل بادرة تعكر صفوها . . وبالذات مما يجلبه هو من نماذج نباتية وحيوانية - سواء حية أو على شكل حفرية ، تعينه فى أبحاثه العلمية التى يشغل بها معظم وقته . . لكنه لم يضق باعتراضاتها على الإطلاق ، فالسبب الكامن وراء سلوكها - فى تقديره - هو تركه لوظيفته كأستاذ بمعهد بحوث أعماق البحار ، وإحالته إلى المعاش بعد بلوغه الستين من عمره ، الأمر الذى بات يذكّرها - فى نفس الوقت - أنها قد قاربت هذه السن الحرجة فهى تصغره بأعوام ثلاثة . .

- هل أضع الطحلب داخل حوض الزجاج الكبير يا سيدى ؟

من بين أفكاره أجاب السائق : « بل دعه مكانه ، فإنه لن يعمّر على أى الحالات » . .

- إن سيقانه وأفرعه تبدو متماسكة . .

- لكنها عاجلا ما تذبل ، فالطحلب لن يقاوم طويلا اختلاف الضغط الجوى ، بعد انتزاعه من عالمه البحرى . .

وغادر السائق القبو ، تاركاً إياه لوحدته ، وسط نباتاته ، وحيوانات تجاربه ، وأجهزة معمله المنفّرة الشكل فى معظمها . . وكاد أدهم أن ينزلق مرة أخرى مع دوامة أفكاره المتلاحقة لولا أنه سارع بانتشال مشاعره من جمودها ، وهبّ يعدّ

مجموعة من المحاليل والغازات ثقيلة القوام ، ليجرى بها بعض التجارب على الطحلب الجاثم قبالته فى سكون . . وحين انتهى من بحثه ، تناول كراسة صغيرة راح يدون فيها كلمات روتينية . .

«٢٨ مايو ١٩٦٤ : كانت حصيلة اليوم من البحر – فى منطقة الصخور المرجانية ، على بعد الكيلو متر من شاطئ المكس القديم – مفاجأة ضخمة لى . فقد عثرت على طحلب عملاق ، من نوع الماكروسيستس بريفرا - يقبع عميقا تحت سطح البحر باثنى عشر مترا ، فأسرعت أحمله إلى معملى بالفيلا لأتفحصه ولأجرى ما يعنّ لى من تجارب عليه . إن الحصول على مثل هذا الطحلب العملاق مناسبة لن تتكرر ، لندرة وجوده بمناطق البحر الأبيض المتوسط . والطحلب الذى جلبته : له مثانة مركزية ضخمة ، تنتشر منها أوراق مطاطية عريضة ؛ وسيقان عددتها فوجدتها ٢٣ ساقا ، يبلغ أطولها ما يزيد على الأربعة أمتار . وأما أسفل المثانة المعروقة من الخارج ، فقد امتد جذر رئيسى مفلطح ، يحيط به العديد من الجذور الثانوية الماصة .

«ولون أوراق الطحلب هو البنى القاتم ، أما السيقان فيغلب عليها البنى الفاتح المشوب بالأخضر الزيتونى . وأما المثانة والجذور فهى بيضاء فى لون الجير .

«وموطن هذا الطحلب هو أعالى المحيطات ، وبخاصة المحيط الهادى ؛ حيث ينمو مكوّنًا طبقات متراكمة بطول سواحله ، حتى يصل الى إقصى الشمال البارد فى ألاسكا . وهو من نفس العائلة من الطحالب التى يستخدم الأسكيمو وسكان جزر المحيط الهادى سيقانها كقصب للصيد ، كما يصنعون منها نوعًا من الدقيق يخبز على هيئة أقراص غنية بالفيتامينات والبروتين . . إلى جانب طهو أوراقه بعد تجفيفها . فى صور متعددة من الحساء ، لها نكهة الكرنب . »

فى اليوم التالى ، دون فى صفحة مجاورة من صفحات الكراسة ، ما يلى :

« ٢٩ مايو ١٩٦٤ : كان تقديرى بالأمس أن الطحلب لن يعمر لأكثر من يوم ، إزاء اختلاف الضغط الجوى بارتفاع يزيد عن ١٨ مترا (هى فرق المسافة بين مكمنه تحت سطح البحر ، ومرقده الحالى ، حيث يقبع قبالتى فى قبو الفيلا .. كان تقديرى أن الطحلب لن يعمر لأكثر من ٢٤ ساعة ، ولكن — لدهشتى البالغة — طالعنى لدى تفقده صبيحة اليوم ، بمظهره المهيب ، وهو لا يزال محتفظا بمعظم حيويته الظاهرة . لذلك فقد عجلت باغراق نصفه السفلى المتضمن مثانته وجذوره — داخل صندوق بلورى كبير ملأته بماء البحر المالح ، بعد إضافة مزيج مختار من العقاقير والمواد الغذائية المناسبة .

« وهأنذا فى انتظار النتيجة ، يراودنى أمل غامض » .

* * *

على أن نوبة عابرة من نوبات ضغط الدم حالت دون تفقد « أدهم راشد » تجربته على الطحلب العنيد ، وموالاتها بالرعاية اللازمة . . وحين هبط بعد غيبة أسبوع إلى القبو ، وقد استرد بعضا من عافيته ، كانت الحقيقة الضخمة فى انتظاره ، تفوق كل ما يحيطها من هواء مكتوم ، ورطوبة ، وروائح عفنة تزكم الأنوف . . فقد طالعه الطحلب بكامل بهائه ، صحيحا ، زاهى الألوان ، تمتلئ أفرعه وأوراقه العريضة بالعصارة المتدفقة . . إذن فالنبات البحرى النادر لم يهلك بالرغم من جميع تقديراته . . وإذن فهو بإزاء أندر الفرص التى قلما تتاح لباحث ضليع ، كى يدرس خلالها وعلى الطبيعة ، واحداً من أقدم وأغرب المخلوقات التى عرفها كوكب الأرض . .

اندفعت الدماء ملتهبة فى شرايين الدكتور أدهم ، لتثير الحماس والتحفز الكامنين

فى أعماقه . . ولا شعوريا ، وجد نفسه ينزع سترة منامته البنية ويرتدى بدلا منها معطفا أبيض ، وقد هيأ مشاعره وحصر أفكاره فى أحب المهام لديه . . على أنه – وقد همّ بإغلاق باب القبو من الداخل – تناهى إليه صوت ابنه الغليظ ، الشبيه بأوتار قيثارة غير مشدودة ، يأتيه مدويا من الطابق الأول بالفيلا :

– أهو بالقبو حقا ؟

أجاب الخادم بالإيجاب . . .

– لكنه لايزال مريضا . . فكيف يتسلل إلى ذلك المكان المعبق بالرطوبة ؟

– هل أخطره بسؤالك عنه ياسيدى ؟

لم يرد الابن ، وإنما تعالت خطواته تهبط السلم ، قاصدة القبو ، وقد اتضح من بطئها ثقل البدن الذى تحمله قدماه . . لقد كان الابن صورة من رشاقة أمه !

– أمازلت مرتديا منامتك يا أبى ؟

– إنه سروال المنامة ، وفوقه معطف المعمل كما ترى . .

تمتم الابن متملقا : «لكنك لم تتناول إفطارا ، ألا ترى أن الوقت لا يزال مبكرا على هبوطك إلى هنا ؟

– لدى عمل هام . . بحث علمى أجريه على طحلب بحرى . .

– ماذا . . طحلب ؟ !

لم يلق الأب التفاتًا إلى نظرة الدهشة التى بدت فى عينى ابنه ، وإنما تابع كلامه الجاف : «كنت سأهم بإغلاق باب المعمل علىّ ، لأبدأ فى تجربة ، حين سمعت صوتك تبحث عنى . . والآن ، ماذا تريد ؟

سعل الابن ثم فرك يديه أسفل كرشه البارز الذى لم يكن يتناسب مع الأربعة

والعشرين عاماً ، التي أوشك أن يكملها . . وأخيراً ، قال في صوت حاول أن يخفف من غلظته .

– جئت لأذكرك بموعدنا مع أسرة خطيبتي ، للذهاب معهم إلى الصاغة . ألم نتفق على تحديد اليوم موعداً لشراء الشبكة ؟ . .

-- أنا لم أتفق ، ولم أحدد . . .

– أمي هي التي اتفقت معهم . .

– فلتصحبهم هي !

وأصر الابن : «إن الباشا – والد خطيبتي – سيجيء معنا . . لذلك فلابد من حضورك أنت» . .

– لا أستطيع . . آسف ، فلدى عمل هام لا مفر من أن أنتهي منه أولاً . ولتؤجل موعدك للغد !

ومن بعيد ، من أعلى . . ربما من أعماق الطابق العلوى بالفيلا وُجِّه صاروخ مباشر إليه تفجر عن كلمات آمرة . .

– ليس هناك ما هو أهم من مستقبل ابنك يا عزيزى أدهم . . ولتصعد حالاً ، فالوقت لم يعد متسعاً !

كاد أن يقذف بابنه إلى خارج البهو ، وهمّ أن يصيح في زوجته موبخاً إياها على كلماتها التي تتسم بالغباء دون شك ، خاصة وهي تبرز أهمية شراء «شبكة» على إجراء التجربة . . وحين راح يصعد في أعقاب ابنه ، كان يؤكد لنفسه – ربما للمرة المائة بعد الألف – بأنه لن يسمح لهما بتعطيل أبحاثه بعد اليوم ، وأنه لن يجيب رغباتهما في المرة القادمة ، ومهما بدر منهما من إصرار ومن صفاقة . . ولاسيما أن التجربة على الطحلب الفريد ضرورية ، وهامة ، وواجبة لأقصى الحدود .

ظن الدكتور أدهم راشد ، وقد لفته شبه إغفاءة والسيارة المرسيدس الضخمة تنساب بقيادة ابنه ، فى طريق عودتها إلى فيلتهم بحى «جليمونوبلو» ، بعد أن ودعا الخطيبة المتيبسة القوام . وأباها الباشا الذى فقد ثروته خلال إحدى نزوات القمار ، فلم يعد يحمل من مقومات اللقب غير ما كان له من مظهر معنوى فارغ . ظن أن الأمر انتهى بشراء الشبكة العتيدة لخطيبة ابنه ، وأنه فى النهاية سيلقى الفرصة ليخلو إلى طحلبه النادر ، فيجرى عليه أبحاثه ، معوضاً كل ما فاته من وقت ثمين تبدد بسبب حبه الزائد لأفراد أسرته !

غير أنه فوجئ عقب وصوله بعائق جديد . لقد هبطت الفيلا ابنته وزوجها وأبناءهما الثلاثة . . ومع دوامة الاحتفاء بمقدم الابنة – التى طال غيابها فى منطقة السد العالى وضوضاء صغارها الذين لا يكفون عن الحركة ، وحفل خطوبة الابن ، حيث قدم الشبكة رسمياً ، وسهرات الأهل والأصهار والأصدقاء احتفالاً بمناسبات أخرى وبلا مناسبات ، تباعدت فرص الانفراد بالطحلب . وبالتالى ، تضاءلت الآمال العراض المعقودة على ما سيجريه عليه من تجارب وأبحاث ودراسات . . ورويداً رويداً ، بات غاية ما يقوم بأدائه الرجل المنضغط القامة – الدكتور أدهم راشد – هو مجرد مراقبة سطحية للنبتة العملاقة ، وتسجيل مخلص لعمليات النمو المطردة ، التى بدأت تظهر فى وضوح على الأطراف الثلاثة عشر للطحلب ، وعلى أوراقه الجديدة التى راحت تشمخ مزهوة بألوانها الحمراء الداكنة ، وقد ازدادت أحجامها حتى قاربت آذان الأفيال فى اتساعها . .

على أن أكثر الأشياء إثارة لحنقه ، كان ذلك الحنو المبالغ فيه ، والذى يقابل به من سكان الفيلا . . . من الزوجة ، ومن الابن الشاب والابنة وزوجها وصغارها . . بل حتى الخدم ، وعلى رأسهم الطاهى العجوز ، لم تكن كلماتهم له

تخلو من لمسات تدليل ورثاء لا تتفق ومكانته . . فلم كل هذه العواطف الحانية تجاهه ، وبمثل هذا الإسراف ؟ . . أتراهم يتآمرون عليه . على طاقاته وإمكانياته فى المجال العلمى ؟ . . على قبس المعرفة الذى يغمره ، ويغذى خلاياه العقلية ويجدد شبابه الذهنى ؟ . على خواطره الثورية ، التى تبحث عن المجهول من أجل المستقبل البشرى ؟ . . أم تراهم – بصريح العبارة – قد توقعوا نهاية حتمية لقدراته كإنسان مفكر . بخروجه على المعاش ؟

فى أعقاب ليلة صاخبة . سهرت فيها « الفيلا » إلى قرابة الفجر ، انهارت الحواجز تحت وطأة ضغوط عنيفة لا تكل . . وتدفق السيل عارماً . يجتاح كل ما يعترضه . . ومن أعماق تمزقه النفسى . انبثقت الساخنة فغطت على بقية أفكاره واكتسحت مشاعره ووجدانه . لتغرق كيانه بأكمله . .

أجل . . . لا مناص من أن يضع حدًّا للذى يجرى حوله . . . أن يوقف تدخلهم فى خصوصياته ، ويريهم قدره الفعلى ومدى سيطرته على كيانه ووجوده .

وهكذا قرر – فى النهاية – أن يتفرغ للطحلب تفرغاً كلياً . أن يستأنف تجاربه عليه دون أى عائق أو حائل ، مهما يكن .

– إلى أين تراك ذاهباً يا أبى ؟ . . وعلام التقطيبة المخيفة التى تكسو وجهك ؟

قالتها ابنته فى صوتها الموسيقى ، وهى تتبع خطاه عبر باب الحجرة التى خصصت لها ، وقد نطقت عيناها الزرقاوان بومضة حنان لا تخلو من السخرية .

إن ابنته هى الأكثر شبهاً به من أخيها ، فلها نفس ملامحه وطباعه . ونفس مزاجه . . وهى الأقرب بين الناس أجمعين إلى فؤاده . . ولكن منذ تزوجت وأنجبت زمرة الأولاد ، اهتزت مكانتها لديه . وأصبحت أكثر بعداً عن دنياه

أجابها فى لهجة خلت من المعانى ، وهو يأخذ طريقه إلى القبو : «إننى هابط لى معملى» .

– إلى الطحلب ؟

– تماما . . ولن يستطيع أحد منكم أن يقطع على خلوتى هذه المرة ، مهما فعل . .

حاولت الابنة أن تعترض طريقه ، مذكرة إياه بموعد سابق له . . وجاءه صوت ابنه غليظاً منفراً وهو يؤكد كلمات أخته المتضرعة السخيفة . . ثم تعالى أيضاً صوت الأم حنونًا ، آمرًا . . كعادته ! .

وأصم أذنيه عن كافة النداءات والتضرعات . . وفى برود متحد ، شق مساره إلى أسفل وأغلق باب القبو وراءه بكلتا يديه ، وكأنه بفعلته يقتل عدواً يخشى الاستسلام لضرباته . .

بداخل القبو أضاء الكهرباء . . واستدار نحو الطحلب ، وقد خلا لهما الزمان والمكان نهائيا ، وحين التقط أنفاسه ، وحدق فى سيقان الطحلب الفارعة ، وكسائها الزيتى يلمع تحت ضياء الكهرباء استطاع أن يميز نموها المتزايد ، وتضاعف عددها حتى ليتعذر إحصاؤها بالعين المجردة . . كما لاحظ أن سمك الساق الواحدة ، قد قارب سمك قبضة يده !

لقد نما الطحلب العملاق لترحم أطرافه وأوراقه ثلاثة أرباع القبو ، شاغلة ما يقارب فى المساحة ستة من الأمتار المربعة ، بارتفاع المتر أو يزيد . . حتى طاولة المحاليل والزجاجات والمكثفات الكيميائية ، لم تسلم من بضع سيقان تستقر فوقها ، أو تلتف حول رجل من أرجلها الخشبية القصيرة . . على أن الرجل – أدهم

راشد ، أستاذ الكيميائيات ومدير قسم الكيمياء البيولوجية بمعهد بحوث أعماق البحار ، سابقاً — سرعان ما قطع صلته بكل ما يدور خارج جدران القبو ، وشمر عن ساعديه ، ليندمج فى سلسلة متصلة من التجارب المحمومة الشاقة على الطحلب .

ومر الوقت دون أن يحفل به . . أوغلت الساعات فى مسار الزمن ، وهومشغول بكافة ما يكمن فى أعماقه من حس ومشاعر . . فى حين تضاعفت الطاقة التى يبذلها عشرات المرات عن ذى قبل . .

ثم ، على غير انتظار ، سمع همساً ! . . تناهى إلى أذنيه صوت خافت غير مألوف ، ليستقر فى ذرا روحه . . وبدأ الصوت ناعسًا ، صدئاً ، يأتيه من غور بعيد ، سحيق ، وقد انمحت أبعاده ، واختلطت نغماته . . لكنه كان آسرًا ، لا يقاوم . .

واحتواه الصوت ، وهو صاغر لا يملك المقاومة :

«أدهم أدهم ، يادكتور . . يا أستاذ الكيميائيات . . يا أدهم راشد . . أيها العالم النابغة . . التفت نحوى . . انظر إلىّ !

بغتِ الرجل . . تلفت فى حيرة ، وقد خيل إليه أن الهمس يتسلل إليه عبر شقوق خفية بواحد من جدران القبو الأربعة . . ولكن أيها ؟ ؟

«يا أدهم راشد ، لا تندهش ! . . إنه أنا الطحلب أناديك ! . . الطحلب الذى انتزعته قسراً من أعماق مملكته السحرية ، . . لكن ، هل تعرف حقًّا أى نوع من الطحالب أنا ؟ . . لقد توصلت إلى اسمى العلمى ، فهل تراك توصلت أيضاً إلى حقيقة أصلى ، وكيفية نشأتى . . إلى مبلغ جبروتى وسطوتى ؟ »

تمتم أدهم وقد تركزت عيناه المذعورتان فى اتجاه الطحلب : « أعرف الكثير عنك » .

« بل إن معلوماتك بالقطع قليلة ، سطحية ، وغير مستوفاة . . صدقنى يا دكتور ، إنك لا تعرف إلا أقل القليل ! »

– وما الذى تعوزنى معرفته ؟

تحركت أذرع الطحلب المطاطية فى موجات بطيئة . فيها خبث البحر وغدره . حتى تجمعت فى النهاية قرب مثانته البيضاء المنتفخة فى كثير من الزهو . . وتمايلت ورقتان دانيتان ، بأعلى المثانة فى كبرياء ظاهرة . . ثم جاء الهمس :

أنا طحلب الماكروسستس بريفرا . سيد عمالقة المحيطات بلا منازع ، فهل بلغك كذلك أننى أقدم المخلوفات ، وأول من اختلج بطفرة الحياة على وجه الكرة الأرضية ؟ . . إن مبدأ نشأتى يرجع إلى بعيد . إلى زمن سحيق ينأى بمئات الأعوام عن عمر الأرض . . هى فى أرجح التقديرات بليون عام ! . . حينما ظهرت المواد العضوية البدائية مثل الهيدروكربونات والسيانيدات . . ثم اندمجت جزيئاتها . لتكون جزيئات أكبر وأكثر تعقيداً . حوّلت ما تسبح فيه من مياه البحار والمحيطات الأولية إلى محلول غروى تثقله المعلقات التى تولدت منها فى النهاية مادة الكلوروفيل الخضراء . . وأصبح الكلوروفيل غذاء أول مخلوق بدائى حى ، نتج عن اتحاد المواد المركبة الشبيهة بالبروتين ، فكان أن اصطبغ المخلوق الحى بالخضرة ، خلال نموه وانتشاره السريع ، فى مساحات المياه الشاسعة ، الدائمة الفوران . .

ليعرف فيما بعد مرور الأزمنة والأحقاب . . بالطحلب ! »

تلاشى الصوت الهامس برهة . . عادت أذرع الطحلب تتمدد فى اتجاه الدكتور الواقف مسمراً مشدوهاً . . وتقلصت ، عرتها رجفة لثوان ، ثم قبعت واستكانت على جانبيه . .

. « هكذا ترى يا دكتور أدهم ، أن الطحالب الخضراء التى كانت تعيش عصور ما قبل التاريخ - هى أسلاف كافة النباتات الخضراء ، بل هى كذلك أسلاف لكل المخلوقات الحية التى تدرجت فيما بعد فى سلم التطور والرقى . . والطحالب قصة حياتها معقدة ، وشأنها بالغ العجب . . بل إن مجرد وصفها لا يخلو من إثارة ومن غرابة ! فالطحالب التى أنا واحد منها نباتات لها أوراق نباتية وسيقان وجذور . . وخلاياها تستخدم الطاقة الشمسية . وتركز النيتروجين الجوى . . وهى فى نفس الوقت حيوانات ، تتحرك ، تقذف بسائل سام على فرائسها ثم تلتهمها ! . .

والطحالب تتلون بالعديد من الألوان ، وإن فضلت الأزرق والأخضر والأحمر . . وهى كائنات ليفية أو خيطية دقيقة ، أو هى إسفنجية القوام ، أو مطاطية ، أو خشبية أو حتى هلامية . . وهى تملك قدرات تفوق حد التصور ، فهى تعيش فى مياه البحار والمحيطات والبرك . . وفى رمال الصحارى ، وبين شقوق الصخر . وتنمو فى المناطق الحارة والمعتدلة والباردة والمتجمدة إلى درجة ٢٠٠ تحت الصفر . ولا تقضى عليها مياه النافورات الساخنة ، وحمم البراكين ولو فاقت درجة الغليان . . بل لديها إمكانيات نادرة لمقاومة الإشعاع الذرى وغالبية الغازات السامة . . .

«والطحالب يادكتور تتكاثر بمعدل يصل إلى ثمانى مرات كل ٢٤ ساعة فى المتوسط . . وكل خلية طحلبية – فى جميع أنواع الطحالب مهما صغرت – هى مصنع للطعام فى حد ذاتها ، وبصور مدهشة ! »

على أن نبرات الصوت شابها الغضب بغتة وسرى فى طبقاتها الحادة حقد أهوج دفين ، فى حين زاد التفاف أذرع الطحلب المطاطية حول بدن الرجل – حتى

لامسته وهو لاهٍ ، متجمد ، ضائع الحواس . . !

« هذه هي قصة الطحالب ، يا دكتور أدهم . . هذه هي قصة حياتي . . وهذا هو عالمي وجبروتي ، وقد انتزعتني منه غدراً ، دون أن تملك الحق الذي لا يجرؤ أحد على ادعائه . . لكني مع ذلك بقيت . . لم أمت .،. ولم أنته . . وإنما أنت الذي ستنزل عليك لعنتي وتدمرك نقمتي . . أنت الذي سيحيق بك الفناء ! . . أجل ، لابد أن تدفع الثمن يا دكتور ! »

على الفور ، شعر الرجل بالأذرع الملساء الباردة تحوطه إحاطة كاملة ، لا مهرب منها إطلاقاً . . ثم راحت في عنف وحشي تعتصره اعتصاراً . . وحاول الصياح ، وأنفاسه تتحشرج ، وصدره ينطبق ، وعظامه تسحق وتتفتت ؟ . . حاول الصياح وطلب النجدة ، لكن أنفاسه خمدت قبل أن تتحرك شفتاه . . ثم سكنت كل حركة ، وساد القبو صمت مريب .

* * *

مرت ساعات حتى قاربت الشمس على المغيب . . قلق الطاهي العجوز على سيده ، فهو لم يتناول غداءه بعد . . لذلك فقد قرر أن يقطع عليه خلوته مهما تكن النتائج . . غير أنه بدلا من سيل اللعنات الذي توقع مجابهته اكتشف الجسد المسجى بلا حراك . .

هرع الطاهي مصعوقاً يخطر الجميع بما وجد . . جرت الأم في وجل ، تجمع الأبناء والحفدة والخدم ، وهم مذعورون ، بطول السلم إلى باب القبو . . ثم أتى الطبيب آخر الأمر . . وبعد فحص دام دقائق ، شخص الوفاة بأنها نتجت عن سكتة قلبية سببها إرهاق بدني لم يتحمله جسد المتوفى لكبر سنه !

وفي تثاقل وبطء كبيرين ، انفرط التجمع على السلم . . وتم نقل الجثمان إلى

أعلى الفيلا فى مهابة وحزن ؛ توطئة لتشييعه إلى مقره الأخير فى أكبر قدرٍ من الإجلال يتفق ومكانة صاحبه العلمية المرموقة . .

أما الكائن البحرى . . أما الطحلب ، فبقى فى ركن القبو المظلم ، قابعاً يلفه السكون . . وقد تدلت حوله أذرعه القصيرة الذاوية بلا حراك ! .

# سر القادم من أعلى !

**«رواية الطفلة نوال»**

بغتة ، وقد مالت الشمس نحو الانحدار غرباً ، انفتح باب الدار . . أزت مفصلته الصدئة ، ثم عاد فانصفق . . لكن الأب السادر فى غفوته بعد أن عاد تواً من رحلة بعيدة مضنية . . الغارق فى عرقه تحت أشعة قائظة ، وكأن مامن سقف يعلوه ، لم يحرك ساكناً . .

وتلصصت قدمان طريتان ، تنتعلان خفًا ، لتعبرا إلى الحجرة المجاورة . . الجانبية .

— أماه ! .

واتضح أن الحجرة المظلمة كانت شاغرة ، فاستدارت القدمان فى خفة تعتليان السلم المؤدى للسطح .

— يا أماه !

لم تعرها الأم – المنهمكة فى عصر ونشر ملاءة عريضة – التفاتاً . . .

– هه . . ما الذى تريدينه يا نوال ؟

– طائرة . . سقطت من السماء !

– هكذا ؟ ! وتلقفتها أنت ؟ »

تململت الطفلة : « لا . . إنما انغرست فى الرمال لدى الحافة الشمالية . فيما وراء خرائب المطار القديم » . .

استطال عنق الأم فبرز رأسها من خلف حبل الغسيل وعليه الملاءة . مشوش الشعر ، محتد العينين .

– آه . عال ! عدت تذهبين للعب بين تلك الأنقاض المخيفة ؟ !

تراجعت الطفلة قليلاً . . حكت طرف أنفها الأقنى بسبابتها . تحرك فكها . . .

– لم أذهب إلا بعد . . أن . . رأيت الطائرة . . تسقط . .

لكن الأم قاطعت ابنتها فى ضيق ، وهى ترسل إليها نظرة شاردة .

– اسمعى يا بنتى . . أنا لست مستعدة لتلقى تخريفاتك كما ترين . فأنا مرهقة بما فيه الكفاية . . اهبطى إلى أبيك ، حدثيه بأمر طائرتك ، أو لعبتك . . إن جرؤت !

تسللت الطفلة تهبط الدرجات ببطء . تشيعها دمدمات أمها فاترة خالية من الحماس . . « إياك والعودة ثانية إلى هنا . . إياك وولوج منطقة الأنقاض اللعينة . . المسكينة تقول طائرة . . أنا نفسى لا أكاد أتذكر شكل الطائرة عن قرب » .

قبالة الفراش الذى كان غطيط أبيها يتصاعد منه توقفت نوال يعتريها التردد . . هل توقظه حقًّا ؟ . . إن الطفل الآخر ، الذى برز من جوف الطائرة – هكذا تخيلته بداخل ردائه المدرع – ربما كان فى حاجة لمساعدة من شخص يكبرها . .

ومدت أصابع بيضاء رخصة : أبي . . أبي !

لابد أنه كان يحلم . فقد ارتجف ولكز بركبته جانب الفراش ، ثم ضم شفتيه وهمس دون أن تختلج عيناه . .

– خيراً يا . . نوال . . خيراً ؟

– الطائرة سقطت بالطفل الغريب . . وهو يئن . . يتوجع . . قم واسعفه يا أبي . أو انظر ما الذى يحتاج إليه !

فتح الرجل عينًا أو الاثنتين لحظة . لكنه قطب جبينه فى بلاهة بدت بعرض جبهته . . ثم أولاها ظهره ، وهو يتمتم فى ضيق . وكأنه يقصيها عنه .

– طفل . . فى طائرة ؟ . . هزلت ! . . اذهبى إلى أمك !

غير أن الطفلة نوال اتخذت طريقا مختلفا . . وحين أيقظت الأم زوجها ، عقب هبوطها بساعة ليصيب شيئا من الطعام ، اكتشف الاثنان اختفاء طفلتهما ابنة الأعوام السبع . . وكذا اختفاء جزء من الطعام ، وكسرتى خبز !

* * *

«حادث للطفلة إخلاص»

هناك نوع من الرجال يختزن قدرا من الطاقة يفوق مظهره الخارجى . . «وسمهودى» من هذا النوع ، فارع نحيف ، محنى القامة ، بارز عظام الوجه . . يخيل لمن يراه أن نفحة هواء كفيلة بقذفه بعيدا . . لكنه على نقيض شكله ، إذا ما استثير يتحول إلى بركان مدمر ، لا يقوى على مجابهته أحد ! . . . وفى تلك الساعة المتأخرة من النهار، كان البركان «سمهودى» يتفجر. . فهاهوذا أبوه الحاج قد أوشك على الرحيل دون أن يرى حفيدته إخلاص ، التى تسللت منذ الصباح المبكر . . ثم زاد فى ثورته ما علمه بعدئذ من عم أحمد البقال ، عن

ذهابها مع نفر من أطفال القرية إلى حيث خرائب المطار . . فما الذى يفعله الصغار فى المكان النائى الموحش ؟ !

لذلك فما كاد سمهودى يلمح طفلته تظهر فى أول الطريق ، حتى لوح بطول ذراعه ، وصاح مجلجلا :

— عال ! . . مازلت تمشين على مهل ؟ . . عجلى بالقدوم يابنت !

فزعت الطفلة فأقبلت تعدو ليتلقفها الأب بجذبها من أذنها . . .

انفجر : «كيف تجرؤين على الخروج ، والتأخر . . وجدك الحاج لدينا اليوم . . هه ؟ »

همهمت الطفلة ، وهى تحاول التملص فى ألم : «أصل الحكاية . . . . »

لكن الأب زجرها : «اصمتى ! . . ثم — بالذات — كيف سولت لك نفسك أن تتطرفى إلى خرائب المطار ، وقد نهيتك عن ذلك أكثر من مرة ؟ »

تمكنت أخلاص من أن تنفلت من قبضة أبيها : «ما وقع . . . »

ولم يتوقف الأب أيضا : «إذا كانت المرحومة أمك قد دللتك بما فيه الكفاية ، فإننى لست على شاكلتها . . بل إنى منذ وفاتها ازددت أعباء ، ولدى ما يكفينى دونك ويزيد . . . »

وصمت سمهودى أخيرًا . . عندئذ تطلعت الطفلة إلى جدها فى توسل صامت ، تطلب عونا . . فتمتم العجوز فى خوار يخنقه السعال .

— قولى يا إخلاص . . ما سبب تأخرك ؟

— لقد عبرت القنطرة القبلية مع نوال الشامى ، وعوض أبو ستيت ، وحسنة ، وأختها رئيفة . . بغرض جمع كمية من جوافة بر الترعة الشرق . . وبعد أن ملأنا جيوبنا ، وأخذنا نتهيأ للعودة . . إذا بذلك الشىء يسقط من السماء . . !

وفى حين أشعل «سمهودى» لفافة ، وقد بان نفاد الصبر على قسماته ، تساءل أبوه العجوز :

– وما الذى سقط يا إخلاص ؟

هزت كتفيها الصغيرين : «لا أدرى . . طائرة غريبة . . حمراء . . مالت من فوق رؤوسنا لتسقط فى المطار . . وعندئذ جرينا مسرعين – فيما عدا حسنة ورئيفة – نحوها . .

بان الفضول عبر التغضنات التى تملأ وجه الجد : «وهل مات من بالطائرة ؟»

– لم يكن بها غير شخص واحد . . السائق . . طفل مثلى ، يضع حديدًا حول جسده القصير عنى !

تعالت زمجرة سمهودى من جديد ، بعد أن كاد غضبه يهدأ : «يا أبى الحاج ، بالله . . هل تصدق حرفا عن الطائرة . . وطيارها الطفل ؟»

– دعنا نتمشى مع ما يجود به خيالها حتى النهاية !

وهمست إخلاص : «بل لقد سقطت طائرة حمراء ، ونجا سائقها» .

وعاد الجد يلاين حفيدته : «وقد كلمت الطيار . . أم تراه كان أجنبيا ؟»

أضافت فى براءة ، وهى تحرك بصرها بين وجهى أبيها وجدها الكبيرين على غير العادة ، وقد تلعثم لسانها ، وارتعشت أطراف أصابعها :

– إنه طفل لا يعرف الكلام بعد !

انتفض الأب . . جمع قبضته ورفع ذراعه الطويلة . . لكنه كان قد اكتشف شيئا ، فجذب ابنته بيده الأخرى من كتفها ، وأدارها بعصبية ليظهر قطع غائر خلف ساقها ، فكشر عن أسنانه ساخرًا :

– وهذا الجرح ؟ . . أى قصة جديدة بصدده ؟

تحرك عقل إخلاص على الفور بكامل ما وصل إليه من نضج يتفق وسنها . . فهل تخبرهما بجلية انزلاق قدمها فوق القنطرة . لدى عودتها العجلة ؟ . . لقد كان أبوها كفيلا بسحقها عند سماعه الخبر . مهما تلقت من حماية الجد . .

ولم نجد مفرًّا من القول : «لقد ضربنى سائق الطائرة التى سقطت ! » .

* * *

«حيرة الصبى عوض» :

قرية «الواكول» مكان غير معروف على خريطة مصر . . وهى فى الحقيقة موقع ناء ، قفر ، قليل الدور ، محدود السكان . . «فالواكول» برمتها سبعة عشر بيتًا ، تمتد متوازية على جدول «الميَّه» الضحل . . ومنشأ الواكول دار أو كوخ أقيم ليتَّخذ مقرًّا لبعض عمال خدمة مطار النفاثات . . أما متى أنشئ المطار ، فهذا تاريخ يعود إلى عام قبل حرب أكتوبر ، التى انتصر فيها المصريون على الإسرائيليين . . وفيما بعد فقد حفر الجدول دائريا ليصل قرب المطار . . وقامت الدور على ضفة الجدول الشرقية ، فى حين امتدت الزراعات فيما وراء الضفة الغربية . . . وإلى حد الصحراء التى احتضنت المطار عند حافتها .

بعدئذ ، أطلق اسم الواكول على القرية ، نسبة إلى أول شهدائها «الأسطى رايد الواكول» الذى عرف كأقدر من يعدون النفاثات للقتال . . ثم لما كانت إقامة المطار على عجل ومؤقتة فسرعان ما هُجِر عقب انتهاء الحرب بأربعة أعوام . . .

والقرية يصلها بضفة الجدول الغربية معبران : قنطرة بحرية ، وأخرى قبلية . . وقرابة مدخل القنطرة البحرية استقامت وتفرعت شجرة دوم ضخمة . كان يجلس تحتها «علوان أبو ستيت» يقرأ كتابا ، حينما لمح أخاه الصبى عوض . يقبل عدوًا عبر القنطرة من اتجاه الغرب . . طوى علوان كتابه وتفرس فى وجه أخيه الصبى وهو

يزداد قربا . . وفى الحال خمن أن أمرًا جللاً قد حدث .

من بين لهاث أنفاسه . ارتمى عوض تحت ظل الدومة . وقد طغت الإثارة على نبراته :

– أمر خطير قد حدث يا علوان .

– ماذا ؟

– شيء أحمر شاذ الهيئة . . انقض وسقط من السماء . . .

مد علوان عنقه : «أكان نيزكا . . أقصد هل كان حجرًا ضخمًا ؟

هز الصبى رأسه نفيًا : «أبدًا . . إنما كان أقرب إلى جسم رأيناه كامل الاستدارة عند مبدأ ظهوره فجأة فوقنا . . فلما أخذ يهبط وبينما هو ينحرف منقضا تجاه المطار . لمحناه يتسطح ويأخذ قواما مستطيلا . . إلى أن وقع وانغرس فى الأرض الرملية . .

شحب وجه علوان . . هب واقفًا . وهو يسأله : «هل أنت متأكد من وصفك ؟

– إنى قادم من مكان الحادثة توًا . .

زادت لهفة علوان : «والشخص . . أعنى من هبط ؟ . . أهو سليم . . حي ؟ »

– وجدناه حيًّا . . يتحرك ، لكنه مصاب بجرح ينزف سائلا أزرق ! . .

واتسعت حدقتا علوان انفعالا : «إذن فهو ينزف دما أزرق اللون ؟ . . لكنك حادثته أولم تفعل ؟ »

– الحقيقة . . إما أن لغته مختلفة ، وإما أنه قد أصيب بارتجاج أو ما يشبه الشرود إثر الحادث . . فقد تعثرت الكلمات فيما وراء قناعه الأخضر ، فجاءت

مبهمة ، غريبة . . غير مفهومة على الإطلاق !

ولم ينتظر علوان سماع المزيد من أخيه ، إنما تأبط ذراعه يستحثه على ضرورة الإسراع به إلى حيث سقط الشيء . . وخرج الشخص الغامض .

وأخذ يهمهم لنفسه . وقد لفته باقة من الأحاسيس والمشاعر المتباينة : «هل يكون حقًا . . طبقًا طائرًا يحمل كائنا غير بشرى ، قد قدم . . من أعماق الكون . . الفسيح ! » . .

«موقف للضابط فتوح» :

– سيادة النقيب موجود ؟

كان الصوت لحوحًا أجوف . . .

– إنه بالداخل . . نقول له من . . ؟

لكن صاحب الصوت لم ينتظر ، إنما اقتحم الباب الموارب ، ودخل تسبقه كلماته المتلاحقة العجلى . .

وفى نهاية حديث مضغوط لكنه مثير ، أطفأ الضابط السودانى المولد «فتوح عبد المولى» لفافته وتسمر يعتريه الشرود برهة اختلطت فيها الأشياء . . أيعقل أن كافة مايؤكده ، وبانفعال متناه ، ذلك الشاب الجالس قبالته ، قد وقع بالفعل فى تلك القرية الصحراوية التى تدخل ضمن مجال إشرافه . . .

وفى الطريق غير الممهد ، وعجلات السيارة (الجيب) تكاد تعجز عن لمس الطريق لفرط إسراعها انطلق علوان يخبر الضابط بمزيد من أسرار الحادث . . ولم يخف عليه – فى النهاية – جلية ما استنتجه بذكائه . . بل إنها الحقيقة التى لا تقبل قولا مخالفا وقد أيدها الكائن نفسه ، بتلك الإشارات المتكررة من كفيه القصيرتين

يغطيها قفازان سميكان . . وبإيماءات رأسه المغلف بغطاء منفر غير شفاف ، كالزجاج أو البلاستيك مثلا . . .

تلك الحقيقة أن الكائن قد قدم حتما من خارج مجال كرة الأرض . . ربما من كوكب مجهول حتى اللحظة يقبع بلا ريب فى ركن من أركان الكون ، وعبر متاهاته المحسوبة بسنين الضوء العصية الفهم . .

انسابت كلمات علوان إلى أذنى الضابط المرهفتين ، تزيد من اشتعال فضوله . . تدعوه إلى استعادة ما كان يقرؤه فى شبابه من قصص الخيال العلمي ، إبان رحلته العلاجية – منذ ربع قرن – مع أبيه فى القارة الأوربية . . بل لقد سمح الضابط لخياله أن يشتط به تجاه أمنيته المزمنة . . أمنية النقل إلى المنصورة موطن زوجته ، فيراها وقد تحققت بفضل استقباله لأول كائن يصل قادمًا من أعلى . . ولمح الضابط بمخيلته – التى لم تنشط قبلا بمثل الضرورة الحالية – عناوين الصحف المصرية والعالمية ، تتحدث عن الكائن مقرونة باسمه هو . . وذلك بخلاف الترقيات والمكافآت والهدايا ، تنهال عليه وعلى أسرته . . والأهم ، بخلاف الاستعداد لتحقيق أقل رغبة يبديها . . وساعتها فربما يفضل البقاء فى العاصمة بدلا من المنصورة ، أو . .

– لا . . من الناحية المضادة ، وإلى الطرف الجنوبى للمطار . . لدى برج المراقبة الخاوى . . .

وحين دلفت سيارة (الجيب) بخمستهم – الضابط ، وعلوان ، وكاتب النقطة ، وجنديين – كان عقل الضابط هو الوحيد الذى وعى خطورة كلمات علوان . . أما قلب الضابط ، فقد راح يدق دقا ملحا ، يكاد ينخلع معه سائر بدنه ، لهفة وتعلقا بمرأى أول طبق طائر حقيق . . عجيب التركيب . . وأول كائن

بفحواه المغاير ، وملامحه المتناقضة الشاذة ، والمنفرة كما جاءه الوصف . . تقعان عليهما عيناه اللتان طال خمولها ، من تكرار ما تقابلان يوما بعد يوم ، فى مكانه المدفون بصعيد مصر . . .

– لنتجه أولا إلى حيث الطبق الطائر . . أين سقط ؟

– أظن وراء ذلك العنبر المنحدر السقف . . .

لكن الضابط وعلوان ومرافقيهما لم يعثروا خلف العنبر إلا على فجوة مهولة الاتساع ، قد غارت فى الأرض وتفحمت جوانبها . . فلما نقبوا فى بعض أنحاء الفجوة ، برغم الحرارة اللافحة المنبعثة من أعماقها ، لم يجدوا غير أجزاء معدنية مشوهة قد انغرست فى الرمال المحترقة ، واختلطت بذراتها . . .

– عبثاً نحاول العثور على شيء . .

– كأن مائة قنبلة سببت الحريق . .

– أو أنه نتج عن انفجار بئر بترول بأكملها . .

وعندئذ تدلى فك الضابط فتوح فى غضب واضح : «لم يتبق غير الذى هبط . .»

فتقدم علوان وصوته يتبعه : «إنه بداخل المبنى الأصفر ، إلى اليمين . . خلف العنبر المهدمة مؤخرته» .

ولدى البناية الباهتة الاصفرار ، صدم الضابط للمرة الثانية . وانتقلت الصدمة إلى مرافقيه ، حين طالعهم الكائن وقد تغطى – من قمة رأسه إلى أخمص قدميه – بصفائح معدنية ورقائق من جلد داكن . . وبخوذة التفت بإحكام حول وجهه وعنقه ، إن كان له عنق . . كذلك وجدوه قزما ، يكاد حجمه ينكمش بجانب حجم الطفلة والصبى الجالسين محملقين إلى جواره ! . . من وسط الأبدان

المسمَّرة خطا الضابط فتوح يتفحص القزم : أهذا الشيء المحجب تماما . كائن قادم بالفعل من مكان ما من السماء ؟ . . من قلب الكون حولهم ؟

أمر يصعب تصديقه . فما بالك بتصوره . . ؟ !

وراحت عينا الضابط تجولان فى أنحاء نصف المتر طولا وأقل من ربعه عرضًا . . رداء مصفح مبرق . من معدن يشبه الصفائح ، تجاورت قطعه فيما يماثل قشر السمك . هذا بدنه . . وأربعة أطراف بالغة الرفع ، من مادة جلدية سميكة ، هذه ذراعاه وساقاه . . ثم قفازان اكتشف أن بكل منهما أكثر من عشر أصابع ، وحذاءان مستديران – يشبهان خف الجمل – من لدين مقوى . إنها يداه وقدماه . . وأخيرًا تلك الخوذة الخشنة الملمس ، على ما يبدو . وقد اعتلت الكل مصمتة قاتمة قبيحة : بلا فتحات ولا ثغرات !

فهل الكائن بلا عينين . . بلا بصر ؟ !

وعاد الضابط فعثر على ما يشبه الأزرار تملأ منطقة الصدر من الكائن القزم . . وميز فى بؤرة كل زر ماسة كروية . تتحرك فى اتجاهه واتجاه جماعته . . تتوزع عليهم ، وتتابعهم . . بل تراقبهم فى توجس وريبة . فهل كلها عيون ؟ . . أو هى أجهزة تقوم مقام العيون ، توضح للقادم الغامض المرئيات ؟ . .

– من أنت ؟

خرجت من بين شفتى النقيب «فتوح» ، فى كثير جهد ، وكثير تردد . . ولم يتحرك القزم وإنما تجمعت ماساته تتركز على الضابط وحده . وقد اعترت حركتها مسحة قلق . .

– كيف جئت إلى هنا ؟ . . أعنى بأى وسيلة هبطت من السماء ؟ . . ومن أين قدمت ؟ . . وأى هدف لك وراء مقدمك ؟

تململ القزم . . رفع يسراه النحيفة فى مشقة واضحة . . ومن بطنه تصاعدت نغمات ممطوطة خافتة ، كأنها صرير موجات للراديو شردت . . غير أن الكل لم يميز نغمة بينها ذات معنى ، وبالتالى فلم يفهم أحدهم مقصده من إصداره نغماته . .

ولاحظ الضابط لأول مرة ، مادة زرقاء تبلل ذراع القزم . . مادة ثقيلة . جيلاتينية ، تنسكب ببطء .

– ما هذا ؟

وانحنى يجذب الذراع ليرى البقع عن قرب ، فى حين جاءه صوت الصبى عوض . .

– إنه الدم الذى أخبرتك به . . ينزف من ذراعه منذ وجدناه !

وأحس الضابط فتوح ذراع القزم خفيفة ، فتحسس كتفه بأصابع حيرى ، واجتذب بدنه ممتعضا . . وهنا خيل إليه كذلك أن ما يحتويه جرم بلا وزن ، يشبه وعاء البلاستيك الفارغ . . أو كأن مادته ليست لحما يماثل التكوين البشرى من خلايا وعظم ومحتويات سائلة ، وإنما هو قوام إسفنجى . . أو هو مجرد خواء ! . .

ترى أفهذا كائن كونى حقيق ، أم تراه لعبة مخفاة بمهارة ؟ ! . . أم أنه أكذوبة ؛ خرافة مما تتناوله الصحف هذه الأيام ، وضعها القدر فى طريقه بكيفية ما . سوف تتضح فى النهاية ؟ !

وسمع الضابط فتوح تضرع الطفلة ، ولم يكن قد التفت إليها من قبل :

– المسكين . . لم يأكل شيئاً مما قدمته إليه من طعام . . .

أخرجته الهمسة الملهوفة من دوامة أفكاره المتخبطة ، ليلحظ أنظار رفاقه تحاصر علبة معدنية استقرت أمام ساق الطفلة المستكينة ، والأسى يملأ حدقتيها ، وينطبع فى قسماتها الغضة . . .

– أنت نوال ؟

– أجل . . .

– والتى قبالتك هى قدر الطعام ؟

– لا بل الطعام هناك . .

وأشارت إلى منديل قطنى ، يلتف على شىء فى داخله . . .

التقط النقيب فتوح العلبة : «إذن فما الذى تضمه هذه ؟» .

– إسأله هو . . إنها تخصه . .

وقلب الضابط العلبة بين يديه أكثر من مرة ، دون أن يجد فتحة لها . . فى حين لاحقته نبرات الطفلة الملتاعة : «لقد رفض التدثر بالسترة التى جلبها عوض . . مع أنه كما ترى يرتجف من البرد !

لكن الصبى اعترض فى لهجة الواثق : «بل يرتجف من الحمى . . ألا ترين مبلغ جرحه ؟»

واتضح الانزعاج والألم على القسمات البريئة ، وتمتمت شفتا نوال المحمرتان : «صحيح . . إنه مريض . . وإخلاص قد تأخرت كثيرًا فى إحضار الدواء» .

عندئذ هم الضابط النقيب فتوح أن يوجه كلامًا ، ربما إلى الطفلة أو إلى الصبى حول الطعام ، وربما إلى القزم بصدد العلبة المبرقة المعدن والمثمّنة الحواف ، التى قيل إنها علبته . . حينما وقع الذى وقع . . مرعبا ، متداخلا ، تتلاحق رؤاه وتتسابق فى سرعة خارقة . . .

جمع خفير عريض مختلط من البشر ، برز من عدة اتجاهات . . وفى ثوان كان يحيط : المبنى الأصفر ، المحتوى على الكائن والضابط ومن معهما . . .

وفى ثوان انفجرت صيحات محنقة ، غضبى . . تطلب القصاص الفورى من

سائق الطائرة الذى يدد أمن القرية الهاجعة على طرف الصحراء . . وكان يتزعم الجمع رجلان . . الأول راح يتهم الوافد الصامت الغريب باختطاف ابنته نوال ، بعد أن حرضها على سرقة مأكولات من بيته . . والثانى أخذ يتوعد الغريب بأقصى عقاب ، لتجرئه على إيذاء ابنته إخلاص ، بإحداث جرح غائر بساقها . . .

حاول النقيب فتوح أن يهدئ من ثورة القادمين ، وأن يفهمهم خطأ ما يتوون الإقدام عليه . . وحاول أن يأخذهم باللين فى المبدأ ، ويثنيهم عن عزمهم ، ويفرق جموعهم . . فلما صدمه إصرارهم ، اضطر هو ومسدسه الذى لم يستخدمه منذ تسلمه إلى أن يقفا سدًّا منيعًا فى وجوههم . .

لكن رجلا أشعث الشعر ، يتوكأ على عكاز غليظ ، صاح : «وماذا لو كان من تحميه قد أتى وجلب معه مرضا يعم قريتنا ؟!»

وانطلقت ملحوظة مغرضة ، تحت أذن الضابط مباشرة : «إن ملامح وجه القزم تشبه ملامح أكلة لحوم البشر ! » . . أما رجل الدين المعمم ، فقد اكتفى بالتمتمة فى الناحية المقابلة ، بأن «هبوط الشيطان على هذه الصورة لا شك ينذر بشر مستطير . . » .

– ياقوم ، اتقوا الله . . اسكتوا ودعونا نتبين حقيقة أمره . .

أطلقها فتوح صارخة مدوية فاهتزت لها طبال آذانهم فى قسوة . . على أن الشاب علوان اقترب فى تردد ، وهمس للضابط همسا مبهماً . وران صمت ثقيل ملؤه الغضب والتحفز . . وأعمل الضابط فكره الذى طال به الركود ، وثقل عليه الصدأ . . أجل . لم لا يكون الكائن حاملا بالفعل لجراثيم وباء خطير ؟ . . وتألق مخ الضابط الروائى ، فأضاف من عنده : أو قد يكون جاسوساً أو طليعة لغزو كائنات تأتى من الفضاء ، الذى يزخر بأعداد لا حصر لها من الكواكب المأهولة

التي تشبه أرضنا . .

غير أن شيئا منقطع النظير قد راح يتداعى فى نفس اللحظة . مع إيقاع زمن خفى ، لم تسمع أصداؤه أبداً من قبل . . . شيء غير مألوف إطلاقا على وجه كوكب الأرض . بدأ يحدث حتيتا . . وعلى مرأى ما يزيد على أربعين رجلا وطفلين . وقفوا بل جمدوا إزاءه عاجزين صاغرين مشدوهين . .

فقد انطلق نوع مخضر ، أو هو بنى يميل إلى الخضرة ، من الأبخرة العديمة الرائحة . يتصاعد من أنحاء ما يغلف الكائن الكونى القزم أو من أعماقه . . وعلى الأثر أخذ قوامه يتقلص وينكمش ، وينكمش . . فى وهن أولا ثم بسرعة أخذت تتزايد فيما بعد . . وعلى مر دقائق عشر طوال . قاسية . تلاشى الكائن تماما ، مخلفا وراءه - على الأرض - ملء ملعقة من مسحوق ناصع البياض ! . .

وساعتها فقط ، انزاح كابوس ممضٌ مُن فوق رئات عدة ، فأمكن لأصحابها أن يلتقطوا أنفاسا طليقة . . ساعتها فقط ، عاد النقيب فتوح إلى كامل وعيه ، فتنبه إلى أن الصندوق المعدنى لايزال ساكنا بثقله وبجسمه البارد بين أصابعه المتشنجة . . !

« تقرير للجيوكيميائى مذكور ، وباحث اللغويات أبو بكر »

الأربعاء ١٨ أغسطس ١٩٨٧ ميلادية : (سرى جدًّا وعاجل)

« بمكان ما من قلب العاصمة المصرية « القاهرة » وفى تمام الساعة العاشرة من صباح اليوم المؤرخ أعلاه ، فإنه بمعرفة السيد مدير عام المباحث العامة . ومدير عام شرطة جنوب القاهرة شخصيا ، وحضور وفد عال يمثل السيد محافظ أسيوط ، وضمن أعضائه النقيب فتوح عبد المولى وعدد من أهالى قرية الواكول - من أعمال

محافظة أسيوط – قد تم تسليمى : أنا خبير الجيوكيمياء (كيمياء طبقات الأرض) مذكور فضل الله هاشم . . وفيا بعد ، وعلى نفس المستوى تسلمت أنا باحث اللغويات أبو بكر زينهم السعيد :

«عدد ١ (واحد) علبة معدنية مصمتة ومجهولة الغطاء . ذات المقاييس – أطوال ٢٦ × ١٤ سم وارتفاع ١٠,٣سم . . .

«وذلك بقصد إجراء الفحوص والاختبارات عليها . ومن ثم الدراسات بعدئذ على محتواها ، بمجرد تبين حقيقته ، مع وضع مقصد ملح وحيوى فى المقام الأول ، هو خشية أن تتضمن العلبة والمحتوى عنصرا أو عناصر أو أشياء غير معروفة تضر بالبشر جمعاء ، على سطح كوكب الأرض . . . .

ونحن الموقعان على تقريرنا هذا نقر بأننا قد أنهينا المأمورية المكلفين بإجرائها . على التوالى – الأول ، ثم الثانى فى أعقاب الأول – ولمدة ٦٣ (ثلاثة وستين) يوما بتمامها ، وذلك على النحو التالى :

أولا : الجزء من التقرير المختص بالفحوص الجيوكيميائية . وقد استغرق إجراؤه خمسة أيام بكامل لياليها . . حيث أمكن فى النهاية التوصل إلى غطاء جانبى للعلبة ، وبعد عديد من التجارب آخرها بتمريره قرب مجال كهربى عالى التردد – وفى حضور أخصائيي المفرقعات ، وكذا طبيب خبير فى البحوث الجرثومية – تم فتح الغطاء ، حيث عثر بداخله على رق جلدى ، عليه ما يمكن اعتباره كتابة أو نقشاً غير متضح المعالم .

«وأما عن فحص واختبار نوع المعدن المصنوعة منه العلبة . فإننى كباحث قديم ومتخصص فى علوم معادن الأرض – بل اشتركت فى أكثر من دراسة وبحث حول معادن القمر والمريخ – أعلن أن المعدن المصنوعة منه العلبة سالفة الذكر ،

يعد نوعا فريداً ليس له مثيل بين معادن كوكبنا على الإطلاق .

ثانيا : الجزء من التقرير المختص بالمقارنات (١) اللغوية ، وقد استغرق إجراؤه – بعد تعقيم الرق – ثمانية وخمسين يوما ، بعضها غير مكتملة لياليه ، لمرض الباحث صاحب الدراسة خلالها . . فإنه يؤكد عظيم ما جابه الباحث من مشقة خلال عمله المضنى ، فى المقارنة والتطابق بين أشكال وتراكيب نماذج ما ظن أنه نوع من الكتابة الغامضة – وثبت صحته بعدئذ – وبين العديد من صور اللغات الحديثة والقديمة . . حتى انحصرت على اللغة الهيروغليفية ، لغة المصريين القدماء ، فقد بدت شديدة التقارب منها .

وفى أواخر أيام البحث ، أمكن الاهتداء إلى معرفة فحوى كلمات ثلاث عليا ، أسفلها عشر أو اثنتا عشرة لاتزال مجهولة . . وقد قمت بمزيد من الفحص والمقارنة ، قادنى إلى التأكد بشكل باتَ وقاطع ، إلى نفس معنى الكلمات الثلاث دون تغيير . . وهو :

« نحن – ننشد – صداقتكم » :

وأما بقية الكلمات السلفية والتى على الأرجح تفسر اسم ومكان الكوكب مصدر الرسالة ، فجارى حاليا دراستها للتوصل إلى مدلول لها .

جيو كيميائى باحث لغوى

توقيع توقيع

# كتب للمؤلف

- قاهر الزمن (رواية) روايات الهلال -- دار الهلال ١٩٧٢ .
- رقم ٤ يأمركم (مجموعة قصص) كتاب اليوم – دار أخبار اليوم ١٩٧٤ .
- سكان العالم الثانى (رواية) دار الأمانة – مطبعة الأمانة ١٩٧٧ .
- الماسات الزيتونية (مجموعة قصص) اقرأ – دار المعارف ١٩٧٩ .

تحت الطبع :

- الذى تحدى الأعصار (مجموعة قصص) روايات الهلال – دار الهلال .
- رجال تحت الجهر (رواية) .
- كتاب الخيال العلمى ورؤاهم المذهلة (مجموعة مقالات) .
- ملكة ملوك الدنيا (رواية) .
- أوقفوا هذه النهاية (رواية) .
- ألغاز علمية ما تزال بلا حلول (مجموعة مقالات) .
- الشئ (مجموعة قصص) .
- الرحلة المستحيلة (ثلاثية) ، عين الأعصار ، الرحلة ، الأرض ٢ .
- الذين أتوا من قبل (رواية) .

| | |
|---|---|
| رقم الإيداع | ١٩٧٩ / ٣١٣١ |
| الترقيم الدولى ٧ – ٧٢٩ – ٢٤٧ – ٩٧٧ | ISBN |

١ / ٧٨ / ٣٣٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

٢٠

